التفسير وعلوم القرآن

قبسات من أنوار سورة القصص

دراسة موضوعية

إعـــداد

د/ سامي حسن سيف عثمان

الاوقاف - جمهورية مصر العربية

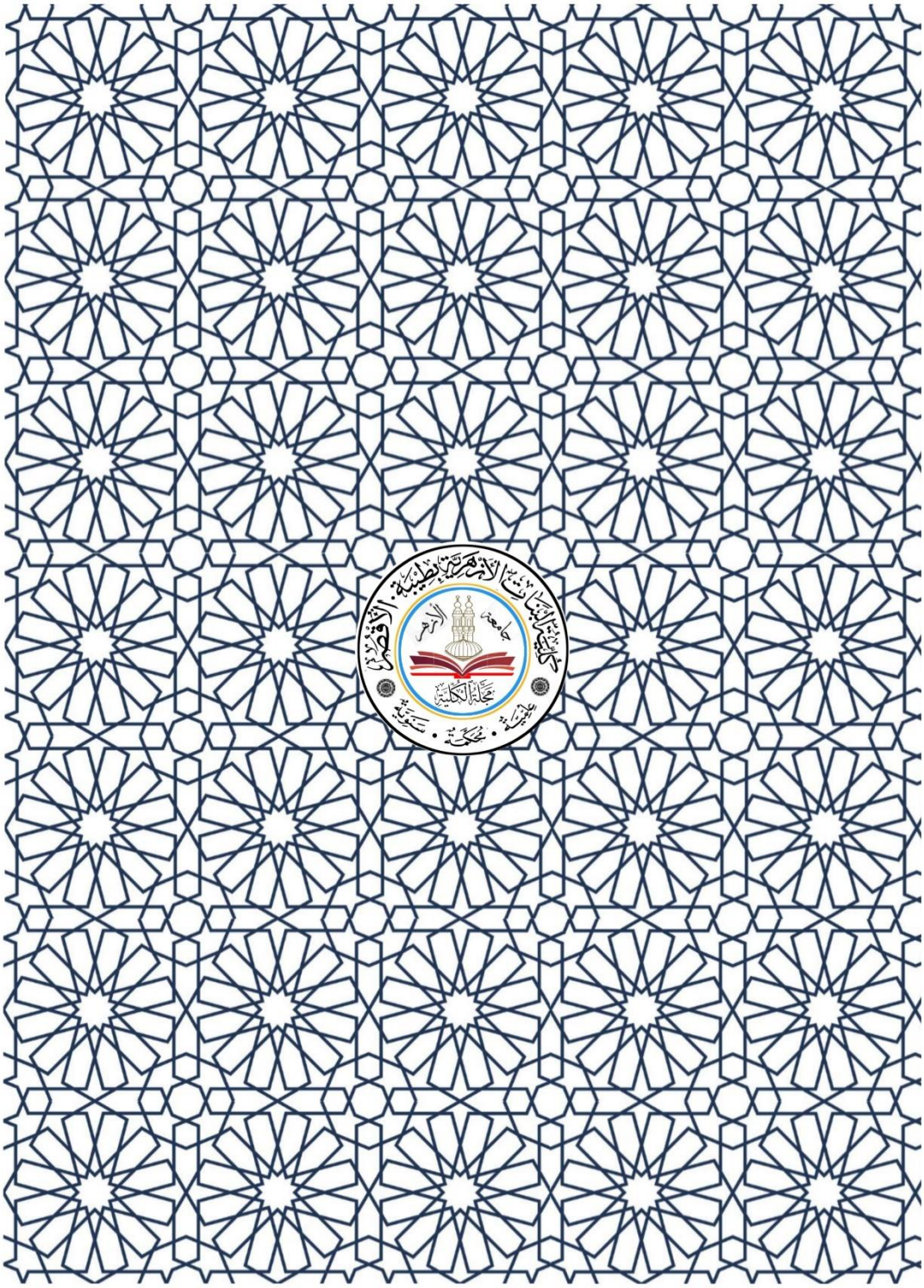

قبسات من أنوارسورة القصص - دراسة موضوعية

سامي حسن سيف عثمان

الاوقاف - جمهورية مصر العربية

البريد الإلكترونى/ hyassin475@gmail.com

ملخص البحث:

يدور البحث حول تدبر الآيات مع النظر لواقع الحياة للاصلاح والتقويم "فالله غالب على أمره " وكما رد الله موسى لأمه ثم رده بعد خروجه من مصر إليها قادر على رد خاتم أنبياءه إلى مكة بعد اخراجه منها وقد وعده بذلك وفي ذكر قصص موسى دليل أن القرآن من عند الله حيث أخبر نبيه ومصطفاه بما لم يشهده من هذه الأمور والله عزوجل لا يظلم الناس شيئًا وله الخلق و الأمر وله القدرة فإن ذهب النهار لا يقدر أحد أن يأتي به وإن استمر الليل لا يقدر أحد أن يأتي بضياء. وفي السورة ما يعالج كثيرا من سلبيات الناس في هذا الزمان كما هو مفصل بعد كل مقطع من أجزائها. تناولت الدراسات السابقة تحليل الآيات وبيان الأهداف العامة ومحاور السورة، أما هذه الدراسة فمن خلال المنهج الإستقرائى لآيات السورة وما تضمنته من صريح عبارة ولطيف إشارة وإسقاطه على واقع الأفراد والمجتمعات لتضىء الطريق وتهدى الناس للطريق القويم كما بينت ذلك فى سبب إختيار الموضوع، والله من وراء القصد.

الكلمات المفتاحية : قبسات ; منة الله ;القصص ;صدق القرآن ; الوعد الحق

Qabasat from the lights of Surat Al-Qasas (objective study)

Sami Hassan Seif Othman

Awqaf - Arab Republic of Egypt

E-mail: hyassin475@gmail.com

Abstract: The research revolves around contemplating the verses with consideration of the reality of life for reform and correction, "God is victorious over his affairs." And as God returned Moses to his mother and then returned him after his exit from Egypt to her, he is able to return the last of his prophets to Mecca after he was expelled from it, and he promised him that, and in mentioning the stories of Moses, there is evidence that the Qur'an is from With God, as He informed His Prophet and Chosen One of these things that he did not witness, and God Almighty does not oppress people in anything, and He has creation and command, and He has power. In the surah, many of the negativity of people in this time are dealt with, as it is detailed after each of its parts. The previous studies dealt with the analysis of the verses and the statement of the general objectives and the axes of the surah. As for this study, it is through the inductive approach of the verses of the surah and what they contain of clear expression and gentle sign and its projection on the reality of individuals and societies to light the way and guide people to the right path, as I showed that in the reason for choosing the topic, and God is behind the intent.

keywords : Qabasat ; God's grace; Qasas; the sincerity of the Qur'an; The true promise

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أكرمنا بالقرآن هدي وذكري وجامعًا لصلاح البشرية في الأولي والأخري، ظهرت آياته في الأنفس والآفاق وقامت حجته وتمت صدقًا وعدلًا في الأكوان كلمته وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا غني لنا طرفة عين عن جوده ورحمته.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله وصفوة خلقه صلاة وسلامًا عليك يا سيدي وعلى آلك وأصحابك ومن والاك إلى يوم أن نلقاك - بفضل الله - في دار كرامته.

أما بعد:

هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس بما حباها الله - عز وجل - من الفضل وامتن عليها بخير رسله وأنزل عليها أحسن كتبه، قال – سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾. (١)

فالقرآن معجزة باقية وأنوار هادية فما كان من حال العرب إلى جانب مملكة فارس والروم وما صار إليه حالهم بعد بعثة خيرالمرسلين -ﷺ - ونزول القرآن الكريم حيث ملكوا الدنيا ودانت لهم فارس والروم بما غيره الإسلام من حالهم وجمع شتاتهم وعلا به قدرهم قال - تعالى - "لقد أنزلنا إِلَيكم كتابًا فيه ذكركم أفلا تعقلون"(٢)

ونزول القرآن بلغة العرب وبعثة النبي -ﷺ -منهم شرف أسبغه الله عليهم وحكمة اقتضتها مشيئة العليم الخبير أن يكون ذلك فيهم وليست الرسالة قاصرة عليهم، بل هي عامة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٣)

وهذه دراسة بعنوان "قبسات من أنوار سورة القصص" دراسة موضوعية تشتمل

---

(١) سورة النساء "١٧٤"

(٢) سورة الأنبياء"١٠"

(٣) سورة الفرقان – أية"١"

على مقدمة وتمهيد واثني عشر بحثًا وخاتمة، اشتملت المقدمة على سبب اختيار الموضوع والدراسات السابقة وهدف الدراسة.

١ـ سبب اختيار الموضوع:

بالتأمل في واقع العالم اليوم وحال الأفراد والجماعات وما أصبحت فيه البشرية من صراعات وما غاب عن دنيا الناس من مباديء وأخلاق أن نرسل شعاعًا من نور وبريقًا من أمل يهتدي به الحائرون ويعتصم به السالكون وها هي قبسات من أنوار سورة القصص، ولماذا سورة القصص؟

القرآن كله نور وضياء وهدي للناس وبينات من الهدي والفرقان ومصلح للبشر على مر الدهور والأزمان وسنري من خلال تفسير سورة القصص كيف يكون الخلاص ويتم الصلاح والإصلاح للفرد والجماعة بما أجمعه من بيان القدامي والمحدثين لآيات هذه السورة الكريمة وبيان سنن الله في خلقه التي لا تتخلف ولا تتبدل وأن واقع هذه الأمة التي هي خير الأمم، إلا إذا صارت وجهتها إهتداءً بنور القرآن واتباعًا لهدي خير الأنام - عليه الصلاة والسلام - "فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقي ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة اعمي قال رب لما حشرتني أعمي وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آيتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسي وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقي [١]

فهلم إلى أنوار سورة القصص لتكون لنا بها صلاح الدنيا وفلاح الآخرة.

٢ـ الدراسات السابقة:

تناول هذه السورة بالبحث والدراسة فيما يلي:

١- سورة القصص دراسة تحليلية وموضوعية (خلة محمود عبدالخالق)

- الجامعة الاسلامية / كلية اصول الدين / القسم الأكاديمي / قسم التفسير وعلوم القران / فلسطين قطاع غزة / الدرجة العلمية: ماجستير سنة ٢٠٠٢.

(١) سورة طه – الآية "١٢٣:١٢٧"

٢- بلاغة الفواصل في سورة القصص (الشيماء بنت محمد بن عبدالله الفرهود)

- جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالمملكة العربية السعودية ١٤٢٥/٢٠٠٤.

٣- الصراع بين الحق والباطل في القران الكريم من خلال سورة القصص "دراسة موضوعية" (عبدالرقيب عبده خالد عبدالله)

- جامعة القران الكريم وتأصيل العلوم الرقمي.

٣ـ منهج البحث وعنوان الدراسة:

تناولت الدراسات السابقة تحليل الآيات وبيان الأهداف العامة ومحاور السورة، أما هذه الدراسة فمن خلال المنهج الإستقرائي لآيات السورة وما تضمنته من صريح عبارة ولطيف إشارة وإسقاطه على واقع الأفراد والمجتمعات لتضيء الطريق وتهدي الناس للطريق القويم كما بينت ذلك في سبب إختيار الموضوع، والله من وراء القصد.

تمهيد:

التعريف بسورة القصص:

تسميتها: سميت سورة القصص بهذا لورود قوله تعالى فيها: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [١]، (والسورة تسمي بأغرب ما ذكر فيها [٢]

نزولها: مكية، باتفاق

عدد آياتها: ثمان وثمانون... بلا خلاف.

عدد حروفها: ألف وأربعمائة وثمانمائة حرف.

مناسبة السورة لما قبلها:

جاء في سورة الشعراء، ثم في سورة النمل، السابقتين على هذه السورة حديث موجز عن موسى وفرعون.... فقد جاء في "الشعراء" قول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا

(١) سورة القصص آية ٢٥

(٢) الإتقان في علوم القران للحافظ جلال الدين السيوطي صفحة ٧٧ طبعة دار مصر للطباعة

وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (١)

وجاء في هذه السورة - القصص - بيان مفصل لهذه الفقرة من حياة موسى، تحدثت عن مولده، وإلقاؤه في إلَيم والتقاط آل فرعون له ونشأته في بيت فرعون تمني له... ثم قتله المصري، ثم فراره إلى مدين وهذه الأحداث كلها قد طويت طيًا في الآيتين السابقتين من سورة الشعراء.

وجاء في سورة "النمل": ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (٢) ولم يذكر فيها من هم أهله؟ ومن أين جاءوا؟ وما وجهتهم معه؟

فجاء في سورة "القصص".... فرار موسى إلى أرض مدين، ولقاؤه شعيبًا وتزوجه بإحدى ابنتيه اللتين لقيهما على ماء مدين، وسقي لهما.... كما سنري ذلك مفصلًا في هذه السورة.(٣)

مقصودها:

اشتملت هذه السورة بعد الإستهلال بالأحرف المقطعة والإشارة إلى آيات القرآن على المقاصد الآتية:

بيان ظلم فرعون بني إسرائيل، وولادة موسى، ومحبة آسية له، ورد موسى على أمه، وحديث القبطي والإسرائيلي وهجرة موسى من مصر إلى مدين وظهور آثار النبوة، وإلَيد البيضاء، وقلب العصا، وإمداد الله - تعالى - له بأخيه هارون، وحيلة هامان في معارضة موسى وإخبار الله - تعالى - عما جري في الطور، ومدح مؤمني أهل الكتاب، وقصة إهلاك القرون الماضية، ومناظرة المشركين يوم القيامة، واختيار الله - تعالى - ما شاء، وإقامة البرهان على وجود الحق إياه بالقهر، ووعد الرسول -ﷺ- بالرجوع إلى مكة وبيان أن كل ما دون الحق فهو في عرضة الفناء والزوال، وأن زمام الحكم بيده - تعالى - في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ

(١) سورة الشعراء اية "١٨:١٩"

(٢) سورة النمل(٧)

(٣) التفسير القرآني للقرآن "٢٠/٣٠٦"

لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. [1]

وقال الإمام برهان الدين البقاعي:

"مقصودها التواضع لله، المستلزم لرد الأمر كله إليه، الناشئ عن الإيمان بنبوة محمد -ﷺ- الثابتة بإعجاز القرآن، المظهر للخفايا على لسان من لم يتعلم علمًا قط من أحد من الخلق، المنتج لعلو المتصف به، وذلك هو المأخوذ من تسميتها بالقصص الذي حكم لأجله شعيب بعلو الكليم عليهما السلام على من ناواه وقمعه لمن عاداه، فكان المآل وفق ما قال".[2]

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.. تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي "١-٣٥٣-٣٥٤" تحقيق الأستاذ محمد على النجار طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي "٤٦٠/٥" خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرازق غالب المهدي طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولي لسنة ١٤١٥ هجري – ١٩٩٥ ميلادي.

البحث الأول:
المفتتح والبشارة

١ـ مفتتح السورة الكريمة:

قال - تعالى - ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ (١)

﴿طسٓمٓ﴾ من الأحرف المقطعة التي افتتح بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم وإن تعددت أقوال العلماء فيها فهي على اتجاهين نقلهما الإمام القرطبي.

الاتجاه الأول:

أنها أسرار استأثر الله تعالى بعلمها، قال عامر الشعبي وسفيان الثوري "هي سر الله في القرآن" ولله في كل كتاب سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها وتقرأ كما جاءت، وهو الصحيح كما قال الإمام القرطبي (٢) ووافقه الإمامان الشوكاني (٣) والألوسي (٤)

الاتجاه الثاني:

القول بالبحث في معانيها واختاره الفخر الرازي (٥) وعزاه القرطبي للأكثرين (٦) وفي معانيها أقوال أوردتها في دراستي (الدرة المقنعة دراسة للأحرف المقطعة في حولية كلية الدراسات لا إسلامية والعربية في دسوق ٢٠٢٠) ولا يترجح من هذه الأقوال قول إلا أن قولها قسمًا عزاه ابن الجوزي لأكثر المفسرين (٧) ونافح عنه القرطبي (٨) واقتصر الإمام السيوطي

(١) سورة القصص "١-٢"

(٢) تفسير القرطبي "١/١٧٥-١٧٦"

(٣) فتح القدير "١/٣٠-٣١"

(٤) روح المعاني للألوسي "١/٣٠-٣١"

(٥) مفاتيح الغيب للرازي "١/٣٥٧-٣٦١"

(٦) تفسير القرطبي "١/١٧٦"

(٧) زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي "١/٢٠" طبعة دار المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الثالثة "١٤٠٤

(٨) تفسير القرطبي "١/١٧٧".

على الوجه فقال: "الحروف المقطعة قسم أقسم الله به وهي من أسماء الله"[١]

وذكره بعض العلماء في بيان ما أشكل إعرابه من القران[٢] وتفسير غريبه[٣]

وإذا كان القول بأن الحروف المقطعة من الأسرار التي استأثر الله بعلمها هو مذهب السلف الصالح فإن حمل هذه الحروف على مجرد القسم دون بيان معناها وتعليل القسم بها يجعل هذا القول موافق لمذهب السلف الصالح ويكون القسم بها مع عدم معرفة معناها مشتملًا على حكمة جليلة يعرض لها صاحب التفسير القرآني للقرآن عند تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾[٤]

وأوثر أن أفهم قوله تعالى ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٥]

أوثر أن أفهم القسم بما يبصرون وما لا يبصرون، على أن مالا يرون له دلالة أصلًا، وهي تلك الحروف المقطعة، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهما معًا، كما جاء القسم في قوله تعالى "﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ وفي أمثالها، فهو قسم بالخفي والظاهر من آيات الله.

يشمل القسم ما يبصرون، من آيات الله القرآنية والكونية على حدٍ سواء، ومما يستأنس به في هذا المقام، أنه قد جاء بعد هذا القسم، نفي صفة الكهانة عن الرسول الكريم -ﷺ - وأن ما يقول من ألفاظ لا يفهمون دلالتها كهذه الحروف المقطعة ليس هو من قبيل كلام الكهان الذي يجيء كله رموز وطلاسم، إنما هو قول رسول كريم، تلقاه وحيًا منزلًا من رب

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور للإمام السيوطي "٤١٣/٣".

(٢) مشكل إعراب القرآن الكريم لمكي بن أبي طالب أبو محمد "٥٩٩/٢" ت د/ حاتم صالح الضامن ط مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية لسنة "١٤٠٥" هجرية.

(٣) التبيان في تفسير غريب القرآن لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري "٥٣،٥٤/١" تحقيق د/ فتحي أنور الدابولي ط دار الصحابة للتراث بطنطا القاهرة ط الأول.

(٤) سورة الزخرف(١،٢)

(٥) سورة الحاقة آية (٣٨:٤٠)

العالمين [١]، ومن ضيق الأفق رد الأقوال في تفسيرها بلا مبرر [٢].

﴿طسٓمٓ﴾ مشيرًا بالطاء المليحة بالطهر والطيب إلى خلاص بني إسرائيل بعد طول ابتلائهم المطهر لهم عظيم، وبالسين الرامزه إلى السمو والسنا والسيادة إلى أن ذلك يكون بمسموع من الوحي في ذي طوي من طور سيناء قديم، وبالميم المهيئة للملك والنعمة إلى قضاء من الملك الأعلى بذلك كله تام عميم [٣]، قرأ أبو جعفر بالسكت على كل حرف من "طسم" وقرأ الباقون بالوصل [٤]

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾

قوله تعالى ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ يقول فخر المفسرين "تلك" إشارة إلى آيات السورة "والكتاب المبين" هو إما اللوح المحفوظ وإما الكتاب الذي وعد الله إنزاله على محمد - ﷺ - ، فبين أن آيات هذه السورة هي آيات ذلك الكتاب [٥]

"والكتاب المبين" إسم من أسماء القرآن والكتاب لغة الجمع فهو يجمع السور والمبين لأنه أبان أي أظهر الحق من الباطل [٦].

يقول الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ووصفه بأنه مبين لأنه يبين الحلال والحرام، أو لأنه بيّن بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد أو لأنه يبين صدق نبوة- محمد -ﷺ -لأنه بين خبر الأولين والأخرين، أو لأنه يبين كيفية التخلص من شبهات أهل الضلال [٧] فيكون هذا

(١) التفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب "١٠٣،١٠٤/١٣" ط دار الفكر العربي.

(٢) ثمار الجنان في أفنان من علوم القرآن للدكتور جوده المهدي "١١٢" ط دار الرسالة القاهرة.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ٨٥٥ هجرية "٤٦٠/٥" ووضع حواشيه عبد الرازق غالب المهدي ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٤) النشر في القرآت العشرتأليف الأمام الحافظ أبي الخير محمدبن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (٦١٠.)ت ٨٣٣هجريه المكتبة العصرية –صيدا – بيروت ٢٠١٠

(٥) مفاتيح الغيب للرازي "٢٤٦/١٢"

(٦) ينظر الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي "٧٠"

(٧) مفاتيح الغيب للرازي "٢٤٦/١٢"

الوصف قد دل على بيان القرآن في نفسه وبيانه لأمور أخري كما يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في معني "المبين" الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور وعلم ما قد كان وما هو كائن [١].

٢ـ بيان ظلم فرعون والبشارة للمستضعفين:

قبل بيان قصة موسى تفصيلًا عرضت الآيات لها إجمالًا:

قوله تعالَ: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾. (٢)

ثم يسوق لنا هذا الكتاب المبين من أنباء السابقين ما يثبت قلب النبي الأمين -ﷺ - كان أميًا فلم يقرأ من كتب السابقين شيئًا ولم يجلس إلى معلم قبل أن يعلمه شديد القوي فثبت أن القرآن من عند الله بلا مراء "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا (٣).

وثبت أن إخباره -ﷺ - إنما هو وحي أوحاه الله إليه كما جاء في حديث القرآن عن آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ووردت أيضًا في ختام الحديث عن يوسف - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وقال له في ختام قصة نوح - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - في سورة هود "تلك من أنباء الغيب نوحيها إِلَيك"[٤]

ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين"(٥) وقال -عز وجل -هنا بين يدي قصة نبي الله موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - مع فرعون "نتلو عليك من نبأ موسى

(١) تفسير ابن كثير "١/٣"
(٢) سورة القصص
(٣) سورة النساء
(٤) سورة آل عمران
(٥) سورة هود

وفرعون بالحق لقوم يؤمنون"

وجملة: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا ومُمّهِدَ لنبأ موسى وفرعون بقوله "نتلو عليك" للتشويق لهذا النبأ لما فيه من شتي العبر بعظيم تصرف الله في خلقه [١] معني التلاوة أي القراءة [٢] أي نقرأ عليك بواسطة جبريل - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - فالإسناد مجازي كما في "بني الأمير المدينة"، والتلاوة في كلامهم على ما قال الراغب تختص باتباع كتب الله تعالى المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيه من أمر ونهي وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك وهو أخص من القراءة ويجوز أن تكون التلاوة هنا مجازًا مرسلًا عن التنزيل بعلاقة أن التنزيل لازم لها أو سببها في الجملة وأن تكون استعارة له لما بينهما من المشابهة فإن كلًا منهما طريق للتبليغ فالمعني نزل عليك "من نبأ موسى وفرعون" أي من خبرهما العجيب الشأن [٣].

قال أبو البقاء العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ﴾ مفعوله محذوف دلت عليه صفته تقديره: شيئًا من نبأ موسى [٤].

والأولي أن من تكون للبيان على تقدير المفعول كما ذكر، أو للتبعيض، ولا ملجيء للحكم بزيادتها [٥].

وقوله ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حال من ﴿نَّبَإِ﴾ [٦] ومعناه بالصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب [٧].

قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ قال الإمام الرازي فيها وجهان:

الأول: أنه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضًا لكنه خص المؤمنين بالذكر لأنهم قبلوا

(١) التحرير والتنوير لسماحة الأستاذ الإمام الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور "٦٣،٦٤/٢٠"

(٢) المعجم الوجيز "٧٧"

(٣) روح المعاني للألوسي "٤٢/٢٠"

(٤) التبيان في إعراب القرآن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن لأبي البقاء العكبري"٤٧٢/٢"

(٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسيرتأليف محمد بن على بن محمد الشوكاني "١٥٨/٤" ط دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان.

(٦) التبيان في إعراب القرآن "٤٧٢/٢".

(٧) تفسير القرطبي "٦١٩/٧"

وانتفعوا فهو كقوله تعالى "هدي للمتقين".

الثاني: يحتمل أنه تعالى علم أن الصلاح في تلاوته هو إيمانهم وتكون إرادته لمن لا يؤمن كالتتبع [١].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه جملة مستأنفة كالتفسير للجمل، كأن قائلًا قال: "وكيف كان نبؤهما" فقال: إن فرعون ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مملكته قد طغي فيها وجاوز الحد في الظلم والعسف (٢) ومعني "شيعًا" أصنافًا في الخدمة (٣)

وتصدير هذه الآية ب ﴿ إِنَّ ﴾ كما يقول الإمام الألوسي: للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أي "إن فرعون" تجبر وطغي في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان "وجعل أهلها شيعًا" أي فرقًا يشيعونه في كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضًا في طاعته أو أصنافًا في استخدامه يستعمل كل صنف في عمل من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يعمل ضرب عليه الجزية فيخدمه بأدائها أو فرقًا مختلفة قد أغري بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ أي يجعلهم ضعفاء مقهورين، والمراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل وعدهم من أهلها للتغليب أو لأنهم كانوا فيها زمنًا طويلا [٤].

وقد زاد هذا الطاغية في إرهاق بني إسرائيل بتذبيح أبنائهم وفي سبب ذلك وجوه ذكرها الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ "**أحدهما**" أن بعض المنجمين أخبروه أنه سيولد من بني إسرائيل مولود يكون على يديه زوال ملكه فذبح أبنائهم وتلك حماقة لأنه لو صدق قولهم ما دفعه حذر. "**ثانيهما**" وهو قول السدي أن فرعون رأي في منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس واشتعلت

(١)) مفاتيح الغيب للرازي "٢٤٧/١٢"

(٢)- الكشاف للزمخشري "٣٩١/٣"

-(٣) بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب لعلاء الدين على بن عثمان بن ابراهيم المارديني المعروف بابن الترجماني "٣٢/٢" ت عبد اللطيف عثمان ط القاهرة لسنة ١٤٢٢ هجرية ٢٠٠٢ ميلادية.

(٤) روح المعاني للألوسي "٤٢،٤٣/٢٠"

على مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل، فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بقتل الذكور. "**ثالثهما**" أن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل وهذا الوجه هو الأولي بالقبول [١].

يقول الإمام القرطبي: كان فرعون يذبح الأطفال ويبقي البنات، وعبّر عنهم باسم النساء بالمآل [٢] واعراب قوله تعالى ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً﴾ يجوز أن يكون صفةً لشيعًا ﴿يُذَبِّحُ﴾ تفسير له أو حال من فاعل يستضعف، ويجوز أن يكونا مستأنفين [٣].

قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي الراسخين في الإفساد ولذلك إجتراً على مثل تلك العظيمة من كل جنحة له من ذراري الأنبياء عليهم السلام لتخيل فاسد [٤]، وقد اشتملت هذه الآية على حال بني إسرائيل واستضعافهم ثم ذكرت الآية التالِية ما لهم والتمكين لهم،

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾.

يقول الإمام الرازي: قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾. فهو جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرًا لنبأ موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وفرعون اقتصاصًا له، واللفظ في قوله تعالى "ونريد" للاستقبال، ولكن أريد به حكاية حال ماضيه ويجوز أن يكون حالًا من ﴿ يَسْتَضْعِفُ﴾ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم.

فإن قيل: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله تعالى "المن" عليهم، وإذا أراد الله شيئًا

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٤٨/١٢، ٢٤٧" بتصرف

(٢) تفسير القرطبي "٤٠٨/١"

(٣) التبيان في إعراب القرآن "٤٧٢/٢"

(٤) روح المعاني للألوسي "٤٣/٢٠."

كان ولم يتوقف إلى وقت آخر؟

قلنا: لما كان منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم [١] وهذا هو بعض السر في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ﴾ "ونريد" يتعلق الفعل بالمستقبل، مع أن إرادة الله قديمة أزلية... ولكنها هنا إرادة خالقة قد جاء أوان إمضائها على الوجه الذي أراده سبحانه... أنها تصدم إرادة فرعون الذي يريد بها إذلال تلك الجماعة، والله يريد خلاصها من يده، والمن عليها بالتحرير من هذا الأسر [٢].

القبس مما سبق:

١- القرآن كتاب مبين أبان صلاح الناس في المعاش وفلاحهم في المعاد، فحري بهم أن يقتبسوا من أنواره لدينهم ودنياهم وآخرتهم وأهل الإيمان هم الذين يستمعون لقول ربهم ويمتثلون ويصدقون بوعده

٢- على المؤمن أن يعلم أن مع البلاء تدبير من الله تعالى وإرادة بالمنة على المستضعفين ويكون الفرج مع الكرب وهذا يثبت قلوب المؤمنين كالجبال الراسيات مهما كثرت البليات.

٣- لا يغني حذر من قدر وعلى الانسان أن يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله عز وجل هو سبحانه له الخلق والأمر.

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٤٨،٢٤٩/١٢"

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن "٣٠٩،٣١٠/٢٠"

البحث الثاني:

تفصيل قصة ولادة موسى وتربيته.

١ـ ولادة موسى وحفظ الله له:

يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.(١)

قد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة ببني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشي أن تتفاني الكبار مع قتل الصغار فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا وأن يتركوا عامًا فذكروا أن هارون - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ولد في عام قتلهم، فضاقت أمه ذرعًا واحترزت من أول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها مخائيل الحبل (٢)، وبعد أن وضعته اشتد بها الخوف والفزع على وليدها إنه وإن كان في المهد ضعيفًا كالفرخ وتري أنه ليس له مجير من شفار الطاغية ولا مصرخ فإن الله تعالى يُعَلِمها أنه تحت عين الله الذي لا ينام

(١) سورة القصص "١٤:٧"

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير "٢٠٢،٢٠٣"

وفي ركنه الذي لا يضام.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

قال القرطبي: واختُلف في هذا الوحي إلى أم موسى، فقالت فرقة: كان قولًا في منامها، وقال قتادة: كان إلهامًا، وقالت فرقة: كان بملك يمثل لها، قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك، فعلى هذا هو وحي إعلام لها لا إلهام، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية وإنما إرسال الملك إليها نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور، خرجه البخاري ومسلم وغير ذلك مما روي من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلمت على عمران ابن حصين فلم يكن بذلك نبيًا [(١)]، والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الأمر وألقي في خلدها وروعها أن لا تخافي ولا تحزني فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إِلَيك وإن الله سيجعله مرسلًا [(٢)].

وفي هذ الآية والآيات التي بعدها، يكشف الله سبحانه وتعالى عن الأسباب التي يُقيمها سبحانه لتمضي بها إرادته وتتحقق مشيئته وإذا كان الله سبحانه وتعالى في غني عن هذه الأسباب التي تتصل بالمسببات، حيث يقول للشيء {كُنْ فَيَكُونُ} فإنه سبحانه يرينا بهذا التدبر أن هناك أسبابًا يتوصل بها إلى المسببات وأن علينا أن نأخذ كل أمر بأسبابه التي تقع في حسابنا وتقديرنا [(٣)]

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ قيل هي محيانة بنت يصهر بن لاوي، وقيل يوخابذ، وقيل يارخاو، وقيل يارخت، وقيل غير ذلك، والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك ولا ينافي حكاية أبي حيا في الإجماع على عدم نبوتها، لأن الملائكة عليهم السلام وقد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم، والظاهر أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة وفي الأخبار ما يشهد له،

(١) تفسير القرطبي "٦٢/٨/٧"

(٢) قصص الأنبياء "٢٠٣"

(٣) التفسير القرآني للقرآن "٣١١/٢٠"

فيكون في الكلام جملة محذوفة، وكأن التقدير والله أعلم، ووضعت موسى أمه في زمن الذبح فلم تدر ما تصنع في أمره وأوحينا إليها ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ وقيل كان قبل الولادة و"أن" تفسيرية أو مصدرية والمراد أن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ "

قال الإمام الزمخشري:"إِلَيم هو البحر" وقيل نيل مصر، فإن قلت: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهي عن الآخر؟ قلت: أما الأول فالخوف عليه من القتل، لأنه كان إذا صاح ضاقت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه، وأما الثاني فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف(٢)

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ "لا تخافي" والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله في المستقبل ﴿ وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾ "ولا تحزني" والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل في الماضي، فكأنه قيل ولا تخافي من هلاكه، ولا تحزني بسبب فراقه "فإنا رادوه إِلَيك" لتكوني أنت المرضعة له ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ "وجاعلوه من المرسلين" إلى أهل مصر والشام (٣).

يقول الإمام القرطبي: حكي الأصمعي قال: سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول:

أستغفر الله لذنبي كله ... قبلت إنساناً بغير حلّه

مثل الغزال ناعماً في دله ... فانتصف الليل ولم أصله

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أويعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ

(١) روح المعاني للألوسي "٤٥/٢٠"

(٢) الكشاف للزمخشري "٣٩٣/٣"

(٣)- مفاتيح الغيب للرازي "٢٥٠/١٢"

إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين [١]، وكانت أم موسى تصنع ما أمرت به فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل منها فذهب مع النيل [٢]، لقد ذهب مع الماء حيث كانت ترعاه العناية الإلهية واستقر حيث اقتضت الحكمة الربانية استقر عند قصر فرعون، قال: عز وجل: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾

لما كان التقاطهم إياه يؤدي إلى كونه لهم عدوًا وحزنًا، فاللام في "ليكون" لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوًا وحزنًا فذكر الحال بالمآل [٣].

يقول الإمام الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إعلم أن التحقيق إن شاء الله، أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ ليكون لهم عدوًا وحزنًا، لام التعليل المعروفة بلام كي، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ صريح في أن الله تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته بمشيئته وقدرته جل وعلا إلى ما سبق به علمه، وقد صرف مشيئة فرعون وقومه بمشيئته جل وعلا إلى التقاطهم موسى، ليجعله لهم عدوًا وحزنا، فكأنه يقول: قدرنا عليه التقاطه بمشيئتنا ليكون لهم عدوًا وحزنًا، وهذا معني واضح لا لبس فيه ولا إشكال [٤].

"إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين" في كل شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم او كانوا مذنبين مجرمين، فعاقبهم الله بأن ربّي عدوهم ومن هو سبب

-(١) تفسير القرطبي "٦٢٢/٧"

(٢) قصص الأنبياء "٢٠٣"

(٣) تفسير القرطبي "٦٢٢/٧"

(٤)أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تإلَيف/ محمد الأمين بن مختار الجكني الشنقيطي "٤٥٢/٦، ٤٥١" طبع وتوزيع الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض المملكة العربية السعودية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

هلاكهم على أيديهم، وقرئ "خاطئين" تخفيف خاطين أو خاطين الصواب إلى الخطأ [١]، وقد عزا الإمام الرازي هذا المعني إلى جمهور المفسرين وذكر وجهًا آخر عن الحسن أنه ليس من الخطيئة بل المعني وهم لا يشعرون، أنه الذي يذهب بملكهم [٢].

ها هو أمام قصر فرعون بل وبين يديه وقد قتل في طلبه آلاف الولدان أما هذا الغلام فقد ألقي الله عليه محبةً منه حمايةً له وتصديقًا لوعده والله غالب على أمره، قال تعالى: "وقالت إمرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسي أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يشعرون"

إن فرعون لما رآه هَمّ بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت إمرأته "آسية بنت مزاحم" تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون فقالت: "قرة عين لي ولك...." [٣] ولتفخيم شأن القرة عدلت عن لنا إلى لي ولك وكأنها لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها وأن مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه قدمت نفسها عليه فيكون ذلك أبلغ في ترغيبه بترك قتله، فلا يقال إن الأظهر في الترغيب بذلك العكس، وقد يستأنس لكون مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه ما أخرجه النسائي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنها حين قالت له ذلك قال لكِ لا لي ولو قال لي كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها وهذا أمر فرضي فلا ينافي ما ورد من أنه عليه اللعنة طبع كافرًا [٤].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه، وقوله: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ﴾ أي أرادت أن تتخذه ولدًا وتتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه، وقوله تعالى ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة [٥].

---

(١) الكشاف للزمخشري "٢٥٢/١٢"

(٢) تفسير ابن كثير "٦،٧/٣"

(٣) تفسير ابن كثير "٦،٧/٣"

(٤) روح المعاني للألوسي "٤٨/٢٠"

(٥) تفسير ابن كثير "٦،٧/٣"

ثم يصف لنا القرآن حال أم موسى بعد فقد وليدها، قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكروا في قوله تعالى ﴿ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ ﴾ وجوهًا:

- **أحدها**: قال الحسن فارغًا من كل هم إلا من هم موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - .
- **ثانيها**: قال أبو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والإشفاق كقوله تعالى "وأفئدتهم هواء".
- **ثالثها**: قال صاحب الكشاف فارغًا صفرًا من العقل، والمعني أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف.
- **رابعها**: قال الحسن ومحمد بن اسحاق فارغًا من الوحي الذي أوحينا إليها "فألقيه في إلَيم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إلَيك..." فجاءها الشيطان فقال لها كرهب أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت إهلاكه، ولما أتاها خبر موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - أنه وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها.
- **خامسها**: قال أبو عبيدة فارغًا من الحزن لعلمها بأنه لا يقتل على تكفل الله بمصلحته، قال ابن قتيبة: وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغًا من الحزن والله تعالى يقول " لولا أن ربطنا على قلبها" وهل يربط إلا على قلب الجازع المحزون! ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يمتنع أنها لشدة ثقتها بوعد الله لم تخف عند إظهار إسمه، وأيقنت أنها وإن أظهرته فإنه يسلم لأجل ذلك الوعد إلا أنه كان من المعلوم أن الإظهار يضر فربط الله على قلبها [1].

والصحيح ما قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجوني وأبو عبيدة أنه أصبح خالِيًا من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٥٤/١٢، ٢٥٣"

ذكر موسى، وفي معني أصبح وجهان:

- أحدهما: أنها ألقته ليلًا فأصبح فؤادها في النهار فارغًا.
- الثاني: أنها ألقته نهارًا ومعني"أصبح" أي صار(١).

قوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ قال قتادة بالإيمان، وقال السدي بالعصمة، وقيل بالصبر والربط على القلب، إلهام الصبر ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي من المصدقين بوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾

وقال "لتبدي به" ولم يقل "لتبد" لأن حروف الصفات قد تزاد في الكلام، تقول: أخذت الحبل بالحبل، وقيل أي لتبدي القول به [٢]، وبعد أن ربط الله على قلبها أخذت تدبر أمرها وتنظر أين ذهب التابوت بوليدها، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قصيه أي اتبعيه حتى تنظري من يأخذه عن جنب بعد [٣]، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ ﴾ أمرت إبنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها ﴿قُصِّيهِ ۖ﴾ إتبعي أثره وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد [٤].

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي أبصرته عن بُعد حال من الضمير في به أو من الضمير في بصرت ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته[٥].

وقوله تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾ يقول الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي من قبل أن رددناه إلى أمه ومن قبل مجيء أخت موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ومن قبل ولادته في حكمنا وقضائنا، فعند ذلك قالت أخته ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ أي يضمون رضاعه والقيام

(١) تفسير القرطبي "٦٢٥،٦٢٦/٧"
(٢) تفسير القرطبي "٦٢٦/٧"
(٣) بهجة الأريب "٢٣/٢"
(٤) تفسير ابن كثير "٧/٣"
(٥) تفسير النسفي "٢٢٨/٣"

بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه في تربيته وإغذائه ولا يخونونكم فيه، والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد.

وقال السدي إنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ دل ظاهر ذلك على أن أهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفه، ولكني إنما قلت "هم" الملك ناصحون ليزول شغل قلبه، وكل ما روي في هذا الباب يدل على أن فرعون كان بمنزلة آسية في شدة محبته لموسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ، لا على ما قال من زعم أنها كانت مختصة بذلك فقط [١].

وقوله تعالى ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ رددناه وقد عطف الله قلب العدو عليه، وَفَّينا لها بالوعد ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولدها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراق ولدها ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أكثر آل فرعون لا يعلمون، أي كانوا في غفلة عن التقدير وسر القضاء وقبل: أي أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق [٢] وكما يقولون بالتلف أنجيناه من التلف فسبحان من قدر لموسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - أن يرعاه فرعون وأن يجتهد في طلب المراضع له وقد أسرف في ذبح الولدان حذرًا منه، ثم يذكر لنا القرآن بعضًا مما أفاضه الله على عبده موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - من الفضل وعظيم الإمتنان، قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي الحلم وأقصاه أربع وثلاثون سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ قال ابن عباس بلغ أربعين سنة [٣].

وفي معني قوله عز وجل: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٥٥/١٢"

(٢) تفسير القرطبي "٦٢٨/٧"

(٣) تفسير القرطبي "٦٢٨/٧

يقول الإمام الزمخشري: يروي أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنه العلم: "التوراه"والحكم: "السنه"، وحكمة الأنبياء سنتهم، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾.

وقيل معناه آتيناه سيرة الحكماء العلماء، وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلًا يستجهل فيه [1] قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي كما جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر وصدقت بوعد الله، فرددنا ولدها إليها بالحق والطرف وهي آمنة ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوة وكذلك نجزي كل محسن [2].

القبس مما سبق:

١- امتثال أمر الله وان كان ظاهره الهلاك ففيه النجاة

٢- الثقة بوعد الله كما وعد أم موسى ومن أوفي بعهده من الله.

البحث الثالث:

سبب خروج موسى من مصر

موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - **والقتيل:**

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ

(١) الكشاف للزمخشري "٣٩٧،٣٩٨/٣"

(٢) تفسير القرطبي "٦٢٩/٧"

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

ولما أخبر بتهيئه لنبوته، أخبر بما هو سبب لهجرته، وكأنها سُنت بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقال ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ (١).

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إختلفوا في المدينة، فالجمهور على أنها هي المدينة التي كان يسكنها فرعون، وهي قرية على رأس فرسخين من مصر، وقال الضحاك: هي عين شمس (٢).

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ لماذا دخلها على حين غفلة؟

لما علم موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ما عليه قوم فرعون من الضلال وما يسومونه لقومه من الإذلال فعاب عليهم ذلك وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلا خائفًا مستخفيًا فدخلها وقت الظهيرة أو بين المغرب والعشاء، أو أن فرعون لما نابذه أخرجه من مصر وغاب عنها سنين وجاء الناس على غفلة بنسيانهم لأمره وبعد عهدهم به (٣).

وما ذكر أن موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ظل في قصر فرعون إلى حين استغاثة الإسرائيلي له

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور "٤٧١/٥"
(٢) مفاتيح الغيب للرازي "٢٥٨/١٢"
(٣) تفسير القرطبي "٦٢٩،٦٣٠/٧"

وأنه استغاث به لمكانته من فرعون وأنه كان وقتها على رسم التعلق به [١]، وسياق الآيات لا يتفق مع هذا القول لذكر دخوله المدينة على حين غفلة من أهلها، وما سيأتي من بيان خوفه بعد مقتل القبطي، والمقام في قصر فرعون مع ما كان من حالة يأباه صاحب الفطرة السوي إنه ترك معايشهم ولاءً لقومه المستضعفين، كما صرح القرآن عن الإسرائيلي بأنه من شيعته وعن المصري بأنه من عدوه، قال تعالى " ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتضاربان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي إسرائيلي، شيعته: أعوانه من الشياع الحطب الصغار المعينة للكبار على إتقاد النار، وقيل الشيعة: الأتباع، وشاعك كذا: تبعك، ومنه: شاعكم السلام [٢]، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ وكزه ولكزه ولهزه: ضرب صدره بجميع كفه فقضي عليه: فقتله، وكل شيء فرغت منه: قضيته وقضيت عليه [٣].

وقال مجاهد: فوكزه أي طعنه بجميع كفه، وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه فقضي عليه أي كان فيها حتفه فمات، ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي معينًا "للمجرمين" أي الكافرين بك، المخالفين لأمرك).

قوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إعلم أن موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - من غد ذلك اليوم خائفًا من أن يظهر

(١) تفسير القرطبي "٦٢٩/٧"
(٢) بهجة الأريب "٢٤/٢"
(٣) بهجة الأريب "٢٤/٢

أنه هو القاتل فيطلب به [١].

ومع هذا الهم الذي يعالجه موسى، تفجؤه الأحداث بما لم يكن يقع في الحسبان... لقد رأي الإسرائيلي الذي حمّله هذا الوزر وساقه إلى هذا الموقف، رآه في حال كتلك الحال التي رآه عليها بالأمس رآه مشتبكًا مع مصري في صراع غير متكافئ... ثم ما إن رأي الإسرائيلي موسى حتى علا صراخه، طالبًا الغوث والنجدة ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي يستغيث به وينظر موسى إلى الإسرائيلي بعين المغيظ المحنق، ويتمثل فيه الشيطان الذي رأي أنه هو الذي أوقعه فيما وقع فيه بالأمس، وقال عنه: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ وهنا يلقي الإسرائيلي بقوله ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [٢]، إنك لشديد الغواية ظاهر الضلال، حيث عدت لمثل ما فعلت بالأمس ودعوتني مرة ثانية لنصرتك [٣].

قال الإمام الرازي عليه سحائب الرحمات: فإن قيل كيف يجوز لموسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ والجواب من وجهين:

- **الأول**: أن قوم موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - كانوا غلاظًا جفاة ألا تري إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات "إجعل لنا إلاهًا كما لهم آلهة، فالمراد بالغوي المبين ذلك.
- **الثاني**: أنه - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - إنما سماه غويًا لأن من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرر يكون خلاف طريقة الرشد [٤].

يقول صاحب التحرير والتنوير في معني الاستصراخ: والاستصراخ: المبالغة في الصراخ أي النداء وهو المعبر عنه في القصة الماضية بالاستغاثة فخولف بين العبارتين للتفنن [٥].

أراد موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - أن يبطش بالقبطي فتوهم الإسرائيلي أنه يريده لأنه أغلظ له

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٦٣/١٢"
(٢) التفسير القرآني للقرآن "٣٢٥/٢٠"
(٣) المنتخب في تفسير القرآن "٦٨٤"
(٤) مفاتيح الغيب للرازي ""٢٦٣/١٢"
(٥) التحرير والتنوير "٩٤/٢٠"

في القول، فقال ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ﴾ أي ما تريد ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قتالًا، ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي من الذين يصلحون بين الناس.(١)

والظاهر ما قاله ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عزم موسى على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه: "يا موسى" أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك (٢) وأكثر المفسرين على أن القائل هو الإسرائيلي، قال الشوكاني: فلما سمع القبطي ذلك أفشاه ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفشي عليه الإسرائيلي هكذا قال جمهور. وقيل إن القائل: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ هو القبطي، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي وهذا هو الظاهر وقد سبق ذكر القبطي قبل ذلك بلا فصل لأنه هو المراد بقوله "عدو لهما" ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن بموسى المستغيث المرة الأولي والمرة الأخري هو الذي أفشي عليه وأبعت أن قوله ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يليق صدور مثله إلا من كافر (٣).

وأيا ما كان القائل فإنه لما اشتهر أن موسى قتل القتيل وكان قول الإسرائيلي يغلب على النفوس تصديقه على موسى مع ما كان لموسى من المقدمات أتي رأي فرعون وملأه على قتل

---

(١) تفسير ابن كثير "٩/٣"

(٢) المحرر الوجيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام بن عطيه المحاربي "٤٨١-٥٤١هجرية" "١٨٨/٥" وتفسير البيضاوي "٢٨٧/١" وتفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن محمد العمادي أبو السعود "٧/٧" وتفسير الخازن لأبي الحسن على بن محمد بن ابراهيم ابن عمر الشيحي "٩٩/٥"

(٣) فتح القدير "١٦٥/٤"

موسى وذبحه، غلب على نفس فرعون أنه المشار إليه بفساد المملكة فأنقذ فيه من يطلبه من جنده ويأتي به للقتل فخرج على الطريق الأعظم، وأخذ رجل يقال إنه مؤمن آل فرعون ويقال إنه غير في بنيات الطريق قصد إلى موضع موسى فبلغه قولهم له [١].

قال تعالى : ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ ومن أقصي المدينة، ويسعي صفتان، ويجوز أن يكون يسعي حالًا ويجوز أن يتعلق من أقصي بجاء [٢].

واختلفوا في تعيين هذا الرجل، يقول الإمام الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فخرج مؤمن من آل فرعون هو ابن عم فرعون ليخبره بذلك وينصحه كما قال: عز وجل "وجاء رجل من أقصي المدينة يسعي" الآية، واسمه قيل: شمعان وقيل شمعون بن اسحاق وقيل حزقيل وقيل غير ذلك، وكون هذا الرجل الجائي مؤمن آل فرعون هو المشهور، وقيل غيره، ويسعي بمعني يسرع في المشي وإنما أسرع لبعد محله ومزيد اهتمامه بإخبار موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ونصحه، وقيل يسعي بمعني يقصد وجه الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وهو وإن كان مجازًا يجوز الحمل عليه لشهرته [٣].

قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ "يسعي" يجوز ارتفاعه وصفًا لرجل، وانتصابه حالًا عنه لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ وإذا جعل صلة لجاء، لم يجز في ﴿يَسْعَىٰ﴾ إلا الوصف (٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ﴾ الملأ "مهموز" أشراف القوم، سُموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأي أو لأنهم يملؤون العيون أبهةً والصدور هيبةً والجمع "أملاء" [٥]، ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ يتآمرون في قتلك وقيل: يهمون [١].

---

(١) المحرر الوجيز "١٨٨/٥"

(٢) البحر المحيط "١١/٩"

(٣) روح المعاني للألوسي "٥٨/٢٠"

(٤) الكشاف للزمخشري "٣٩٩/٣"

(٥) المصباح المنير "٢٩٩"

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإئتمار التشاور يقال الرجلان يأتمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر، والمعني يتشاورون بسببك، وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون، فعلى وجه الإشفاق أسرع إليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك [٢].

وقوله سبحانه في وصف موسى بعد أن حذره الساعي إليه يتآمر الملأ عليه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ﴾ "الترقب" و"الإرتقاب" الإنتظار [٣].

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ﴾ أي: خائفًا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ، ثم التجأ إلى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطي لم يكن ذنبًا، وإلا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصًا [٤].

القبس مما سبق:

١- الاستجابة لأمر الله.

٢- الحذر من أهل الغواية وعدم معاونة المجرمين.

٣- النصح لمن يقع له أذى كي يحذر منه وهذا خاص بأهل الصلاح دون المفسدين.

(١) بهجة الأريب "٢٥/٢"

(٢) مفاتيح الغيب للرازي "٢٦٤/١٢"

(٣) مختار الصحاح "١٢٦"

(٤) مفاتيح الغيب للرازي "٢٦٤/١٢"

البحث الرابع:
هجرة موسى إلى مدين

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

خرج موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - من مصر بعد تآمر الملأ على قتله وقد أنجاه الله تعالى منهم وقدر له أن يعيش بمدين لحكم اقتضتها مشيئته عز وجل، ولكن هل خرج من مصر قاصدًا مدين أن خرج وما قصدها وسلم نفسه إلى الله فأوصله سبحانه إلى مدين؟، أم جاءه ملك فدله على الطريق، يذكر الفخر الرازي هذه الأقوال ويذكر استدلال القائلين بأنه قصد مدين بما علمه من قرابتهم له.

أما القائل بأنه - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - لم يقصدها فقد استدل بأمرين:

- **الأول:** أن الله تعالى قال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ فلو قصدها لقال ولما توجه إلى مدين لكنه صار إلى وجهتها وهو لا يعلم.

- **الثاني**: قوله تعالى "عسي ربي أن يهديني سواء السبيل" وهذا كلام شاك لا عالم.

والأقرب أن يقال: إنه قصد الذهاب إلى مدين وما كان عالمًا بالطريق، ثم إنه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لأنه يبعد من موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - في عقله وذكائه أن لا يسأل [١]، وبين مدين ومصر ثمانية أيام، قاله ابن جبير والناس وكان ملك مدين لغير فرعون [٢].

أخذ طريقًا سالكًا فرح بذلك: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هاديًا مهديًا.[٣]

ثم بينت الآيات ما كان شأنه - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - حين وصل إلى مدين قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ .. الأية.

قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ ماءهم الذي يسقون منه، وكان بئرًا فيما روي، وورود: مجيئه والوصول إليه، ﴿ وَجَدَ عَلَيۡهِ﴾ وجد فوق شفيره ومستقاه ﴿أُمَّةٗ﴾ جماعة كثيفة العدد ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفل من مكانهم، والذود: الطرد والدفع [ذاد الراعي غنمه عن الماء يذودها ذودًا وذيادً: منعها] [٤].

وإنما كانتا ﴿تَذُودَانِۖ﴾ : لأن على الماء من هو أقوي منهما فلا يتمكنان من السقي، وقيل: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء وقيل: لئلا تختلط أغنامهم، وقيل: ﴿تَذُودَانِۖ﴾ عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما [٥].

---

(١) مفاتيح الغيب "٢٦٥،٢٦٦/١٢"

(٢) تفسير القرطبي "٦٣٥،٦٣٦/٧"

(٣) تفسير ابن كثير "٩/٣"

(٤) المصباح المنير "١١١"

(٥) الكشاف للزمخشري "٤٠٠/٣"

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ خ ط ب (الخطب) سبب الأمر تقول ما خطبك، قلت: قال الأزهري: أي ما أمرك [١]

يقول الإمام القرطبي عليه سحائب الرحمات:

وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب، أو مضطهد أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر، فأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخ كبير، فالمعني: لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأن عادتهما التأني حتى ﴿يُصْدِرَ﴾ الناس عن الماء ويخلي، وحينئذٍ تذودان [٢].

قرأ ابن عامر وأبو عمر: ﴿يُصْدِرَ﴾ من صدر، وهو ضد ورد أي يرجع الرعاء والباقون ﴿يُصْدِرَ﴾ بضم الياء من أصدر، أي حتى يصدروا مواشيهم من وردهم، يصدر: يعني يرجع، والرعاء: جمع راع [٣]، "وأبونا شيخ كبير" إبداء منهما للعذر له - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، في توليهما للسقي بأنفسهما كأنهما قالتا: إنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا تقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلابد لنا من تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء، وذكر بعضهم أنه - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أخرج السؤال على ما يقتضيه كرمه ورحمته بالضعفاء، حيث سألهما عن مطلوبهما من التأخر والذود قصدًا لأن يجاب بطلب المعونة إلا أنهما لجلالة قدرهما حملتا قوله على ما يجاب عنه بالسبب وفي ضمنه طلب المعونة لأن إظهارهما العجز ليس إلا لذلك.

وقيل: ليس في الكلام ما يدل على ضعفهما، بل فيه أمارات على حيائهما وسترهما ولو أردنا إظهار العجز عن المساجلة للضعف ولما جبلا عليه من الحياء، والكلام وإن لم يكن فيه ما يدل على ضعفهما فيه ما يشير إليه لمن له قلب ويفهم من بيان معني جوابهما أن جملة

(١) مختار الصحاح "٩٢"

(٢) تفسير القرطبي "٦٣٨/٧"

(٣) بهجة الأريب "٢٥/٢"

أبونا شيخ كبير عطف على مقدر، وجوز أن تكون حالًا أي نترك السقي حتى يصدر الرعاء والحال أبونا شيخ كبير وأبوهما عند أكثر المفسرين شعيب - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - (١).

وقال الإمام القرطبي:

وقيل إنهما ابنتا ابن ابي شعيب وأن شعيبًا كان قد مات، وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وهو ظاهر القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله (وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ثناء على الله بأنه معطي الخير، ولا خير: ما فيه نفع وملاءمة لمن يتعلق هو به، فمنه خير الدنيا ومنه خير الآخرة الذي يري في صورة مشقة، فإن العبرة بالعواقب، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾

وقد أراد النوعين كما يرمز إلى ذلك التعبير عن إيتائه الخير بفعل ﴿أَنزَلْتَ﴾ المشعر برفعة المعطي، فأول ذلك إيتاء الحكمة والعلم.

ومن الخير إنجاؤه من القتل وتربيته الكاملة في بذخة الملك وعزته وحفظه من أن تتسرب إليه عقائد العائلة التي ربي فيها فكان منتفعًا بمنافعها مجنبًا رذائلها وأضرارها، ومن الخير أن جعل نصر قومه على يده وأن أنجاه من القتل الثاني ظلمًا وأن هداه إلى منجي من الأرض ويسر له التعريف ببنت نبوءة، وأن آواه إلى الظل و"ما" من قوله: ﴿ لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ موصولة كما يقتضيه فعل المضي في قوله ﴿أَنزَلْتَ﴾ لأن الشيء الذي أنزل فيما فعل المضي في قوله ﴿أَنزَلْتَ﴾ لأن الشيء الذي أنزل فيما مضي صار معروفًا غير نكرة، فقوله ﴿ لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ بمنزلة المعرف بلام الجنس لتلائم قوله ﴿فَقِيرٌ﴾ أي فقير لذلك النوع من الخبر

(١) روح المعاني للألوسي "٢٠/٦١،٦٠"

(٢) تفسير القرطبي "٧/٦٤٠،٦٣٩"

أي لأمثاله وأحسن خير للغريب وجود مأوي له يطعم فيه ويبيت وزوجة يأنس إليها ويسكن[١]، وسرعان ما استجاب دعوته وأفاض عليه من رحمته ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾.

في هذا الكلام اختصار يدل عليه هذا الظاهر، قدره ابن اسحاق:

فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقي لهما فأمر الكبرى من بنتيه وقيل الصغرى أن تدعو له ﴿فَجَآءَتۡهُ﴾ على ما في هذه الآية قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سلفعًا من النساء خراجة ولاجة وقيل: جاءته ساترة وجهها بكُم درعها، قاله عمر بن الخطاب وروي أن اسم إحداهما "ليا" والأخري "صفوريا" [٢].

قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾.في موضع الحال، أي مستحييه متحفزة [٣]،[٤].

قال تعالى ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾. وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يوهم ريبة، بل قالت: "إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا" يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا [٥].

قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(١) التحرير والتنوير "٣١٢٨،٣١٣١/١"

(٢) تفسير القرطبي "٦٣٩،٦٤٠/٧"

(٣) متخفرة الخفر: شدة الحياء

(٤) الكشاف للزمخشري "٤٠٢/٣"

(٥) تفسير ابن كثير "١٠/٣"

فإن قلت كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية؟ قلت: أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرًا كان أو عبدًا ذكرًا كان أو أنثي في الاخبار، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه.

وأما مماشاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط والتورع، فإن قلت كيف صح له أخذ الأجر على البر والمعروف، وقيل إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب؟ ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم خصوصًا في دار نبي من أنبياء الله وليس بمنكر أن يفعل ذلك لأضرار الفقر والفاقة طلبًا للأجر وقد روي ما يعضد كلا القولين: روي أنها لما قالت: ليجزيك، كره ذلك، ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبًا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا [١].

ومعني القصص قصصت الخبر "قصصًا" من باب قتل أيضًا حدثت به على وجهه والإسم "القصص" بفتحتين وقصصت الأثر: تتبعته [٢]، فلما ذكر له موسى ما كان من أمره وما جري له من السبب الذي خرج من أجله من بلده "قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين" يقول طب نفسًا وقر عينًا فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلادنا، ولهذا قال: "نجوت من القوم الظالمين" [٣].

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ .

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقي وبالأمانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها إلى أبيها [٤].

---

(١) الكشاف للزمخشري "٤٠٢/٣"

(٢) المصباح المنير "٢٦١"

(٣) تفسير ابن كثير "١٠/٣"

(٤)مفاتيح الغيب للرازي"٢٧١،٢٧٢/٢" وينظر تفسير زاد المنير لعبد الرحمن بن على بن محمد =

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخلطة بين الناس، خلافًا للأصم حيث كان عن سماعها أصم [١].

والتي قالت: يا أبت استأجره هي التي ذهبت وراء موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ، قالت لأبيها ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي فإذا اختلف على الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

وقال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر وصاحب يوسف حين قال أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ ﴾ أي طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعي غنمه ويزوجه إحدى بنتيه [٢].

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ في موضع الحال كقولك: "أنكحتك على مائة" أي مشروطًا عليك، أو واجبًا عليك ونحو ذلك ويجوز أن تكون حالًا من الفاعل، و"ثماني" ظرف [٣]، و"حجج" جمع حجة وهي السنة أما بالفتح "حَجة" أي قصد مكة للحج وبالضم البرهان [٤].

الجوزي "٢١١،٢١٥/٦" الطبعة الثالثة لسنة ١٤٠٤ ط المكتب الاسلامي- بيروت، وينظر معاني القرآن الكريم للنحاس "١٧٥/٥" الطبعة الأولي لسنة ١٤٠٩ تحقيق محمد على الصابوني جامعة أم القري – مكة المكرمة

(١) تفسير القرطبي "٦٤٠/٧"

(٢) تفسير ابن كثير "١١/٣"

(٣) التبيان في اعراب القرآن "٣٧٣"

(٤) المصباح المنير "٦٧" وينظر مختار الصحاح "٦٧"

يقول الإمام الزمخشري: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ﴾ " مفعول به، ومعناه رعيه ثماني حجج.[١]

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ .

لا أريد أن أشق عليك في الرعي، ولكني أساهلك وأسامحك بقدر الإمكان ولا أكلفك الاحتياط الشديد في كيفية الرعي، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس [٢]، فإن قلت: كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز؟ قلت: لم يكن ذلك عقدًا للنكاح، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه، ولو كان عقدًا لقال: قد أنكحتك ولم يقل: أن أنكحك، فإن قلت: فكيف صح أن يمهرها إجارة نفسه في رعيه الغنم ولابد من تسليم ما هو مال؟ ألا تري إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة وجوّز أن يتزوجها بأن يخدمها عنده سنه، أو يسكنها داره سنة، لأنه **في الأول:** مسلم نفسه وليس بمال، **وفي الثاني:** هو مسلم مالًا وهو العبد أو الدار قلت: الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما ذكرت، وأما الشافعي فقد جوّز التزوج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة، إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمرًا معلومًا، ولعل ذلك كان جائزًا في تلك الشريعة ويجوز أن يكون راعي غنمه هذه المدة وأراد أن ينكحه ابنته فذكر له المرادين، وعلق الإنكاح بالرعي على معني: إني أفعل هذا إذا فعلت ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة [٣].

قوله تعالى ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ في الخدمة والعمل ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ أي فهو من عندك من طريق التفضل لا من عندي بطريق الإلزام ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ بإلزام إتمام العشر والمناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال، وإشفاق المشقة وهي ما يصعب تحمله من الشق بفتح الشين وهو فصل الشيء إلى شقين، فإن ما يصعب عليك يشق عليك رأيك في أمره لتردده في تحمله وعدمه ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراد شعيب - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - بالاستثناء التبرك به

(١) الكشاف للزمخشري "٤٠٤/٣"

(٢) مفاتيح الغيب للرازي "٢٧٢/١٢"

(٣) الكشاف للزمخشري "٤٠٤،٤٠٥/٣"

وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى، لا تعليق صلاحه بمشيئته سبحانه بمعني أنه إن شاء الله تعالى استعمل الصلاح، وإن شاء عز وجل استعمل خلافه لأنه لا يناسب المقام وقيل: لأن صلاحه - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - متحقق، فلا معني للتعليق، ونحوه قول الشافعي: أنا مؤمن إن شاء الله [١].

قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾

قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما فرغ كلام شعيب قرره موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وكرر معناه على وجهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج [٢].

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ الخبر، والتقدير بيننا، و ﴿أَيَّمَا﴾ نصب بـ ﴿قَضَيْتُ﴾ وما زائدة، وقيل نكرة، والأجلين بدل منهما، وهي شرطية، و﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ جوابهما [٣]، والمعني: لا تبعة على ولا طلب في الزيادة عليه، والعدوان: التجاوز في غير الواجب، والحجج: السنون، قال الشاعر:

لمن الديار بقنة الحجر *** وأقوين من حجج من دهر

الواحدة حجة بكسر الحاء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قيل: هو من قول الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحدًا من الخلق [٤].

القبس مما سبق:

١- فضيلة الهجرة للطلب أو الهرب وبلوغ المرام وحصول السعة.

٢- فضل المروءة حيث موجبها وفضيلة أهلها وذلك في سقي موسى للمرأتين.

---

(١) روح المعاني للألوسي "٦٨/٢٠"

(٢) تفسير القرطبي "٦٤٨/٧"

(٣) التبيان في إعر اب القرآن "٣٧٣"

(٤) تفسير القرطبي "٦٤٨/٧"

٣- لا حرج في خطبة الرجل لابنته الكفء لها.

٤- مراعاة الخواطر حيث قال شعيب "إحدى ابنتي" ولم يحدد واحدة حفظًا لخاطر أختها.

البحث الخامس:

عودة موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - إلى مصر وآيات النبوة

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هكذا اقتضت مشيئته عز وجل أن يقيم موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بأرض مدين سنين عددا، وقد وجد فيها أمنًا وسكنًا، ولمقامه بمدين حِكَم جليلة ينكشف بعضها فيما بعد بإذن الحكيم العليم ويطوي القرآن الكريم عشر سنين لم يذكر شيئًا منها غير ما أشار إليه من عهدٍ بين الرجلين الصالحين وذاك الأجلين، وها هو القرآن الكريم يذكر

لنا ما كان من أمر موسى في طريق عودته إلى مصر واختيار الله له لرسالته.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ الآية. ﴿﴾

لقد عرض شعيب - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - إحدى ابنتيه وبين له في الإجارة اختيار أحد الأجلين، فأي ابنتيه تزوج؟ وأي الأجلين قضي؟

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أنه روي عن النبي -ﷺ - أنه تزوج صغراهما وقضي أوفاهما، أي قضي أوفي الأجلين، وقال مجاهد قضي الأجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين [1].

قال سعيد بن جبير: سألني رجل من النصارى أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله "يعني ابن عباس" فقدمت عليه فسألته، فقال قضي أكملها وأوفاهما، فأعلمت النصراني، فقال: صدق الله هذا العالم.

وروي عن ابن عباس أن النبي -ﷺ - سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضي عشر سنين[2]، وبيان المدة التي قضاها موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - في مدين يحتاج إلى خبر صحيح، وقد ضعف الحافظ ابن حجر هذه الروايات "فما ورد أن النبي -ﷺ - سئل أي الأجلين قضي موسى؟ فقال: أبعدهما وأبطأهما" أخرجه الحاكم من طريق ابن عيينه عن ابراهيم ابن يحيي عن عكرمة عن ابن عباس بهذا قلت، وابراهيم مجهول.

وقوله: وروي أنه قال قضي وتزوج من صغراهما. أخرجه الطبراني والبزار من طريق عويد بن ابي عمران الجوني عنه عن ابيه عن عبد الله بن الصامت عن ابي ذر أن النبي -ﷺ - سُئل: أي الأجلين قضي موسى؟ قال: أوفاهما وأبرهما، قال وسئل أي المرأتين تزوج؟ قال: الصغرى منهما، وعويد ضعيف، وفي ابن مردوية من حديث أبي هريرة رفعة، قال لي جبريل: "إن سألك

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٧٤/١٢"

(٢) تفسير القرطبي "٦٤٩/٧"

اليهودي أي الأجلين قضي موسى؟ فقل أوفاهما، وإن سألك أيهما تزوج؟ فقل الصغرى منهما" وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف [١]، ومع ضعف أسانيد هذه الروايات فقد اعتمد المفسرون عليها في بيان الأجل الذي قضاه موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وأنه أوفاهما.

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ ذكر الإمام النسفي قول ابن عطاء: لما تم أجل المحنة ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة، سار بأهله ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه [٢].

يقول الإمام ابن كثير: رَحِمَهُ ٱللَّهُ

كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلًا فجعل كلما أوري زنده لا يضيء شيئًا فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي رأي نارًا تضيء على بعد فـ ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون بها من البرد [٣]، والجذوة قريء جذوة مثلثة قطعة حطب غليظة فيها نار بلا لهب [٤].

لقد قصد موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - أن يأتي له ولأهله بجذوة من النار يستدفئون بها أو يجدون من يهديهم الطريق في تلك الليلة الظلماء، وسياق الآية كما يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة لقوله في الإية الأخري ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق، وجمع

---

(١) الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلاني "٤٠٧/٣" بديل الكشاف.

(٢) تفسير النسفي "٢٣٤/٣"

(٣) تفسير ابن كثير "١٢/٣"

(٤) بهجة الأريب "٢٦/٢"

الكل في سورة النمل في قوله ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر، ووجد عندها هدي وأي هدي، واقتبس منها نورًا وأي نور [١].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية.

قال الإمام الرازي :رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعلم أن شاطئ الوادي، جانبه، وجاء النداء عن يمين موسى من شاطئ الوادي من قبل الشجرة[٢]

قال الإمام الزمخشري :رَحِمَهُ ٱللَّهُ من" الأولي والثانية لابتداء الغاية، أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة و ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من قوله من شاطئ الوادي، بدل الإشتمال، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ[٣]

قال تعالى ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى وجهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء، في لحف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتًا في أمرها فناداه ربه ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الفعال لما يشاء، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله [٤].

وكلام الله تعالى قديم وكون موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - سمعه من الشجرة لا يدل على خلق

---

(١) قصص الأنبياء "٢١٢"

(٢) مفاتيح الغيب للرازي "٢٧٤/١٢"

(٣) الكشاف للزمخشري "٤٠٨/٣"

(٤) تفسير ابن كثير "١٢/٣"

الكلام فيها كما قالت به المعتزلة ويجاب عنهم بأمرين:

- **الأول:** أن الكلام القديم الغائب بذات الله تعالى غير مسموع، إنما المسموع هو الصوت والحرف وذلك كان مخلوقًا في الشجرة ومسموعًا منها، وعلى هذا التقدير زال.
- **الثاني:** قول أبي الحسن الأشعري وهو أن الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعًا، كما أن الذات التي ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون مرئية، فعلى هذا القول لا يبعد أنه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة، فلا منافاة بين الأمرين.

إنه رأي النار في الشجرة الرطبة فعلم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة إلا الله تعالى، ويحتمل أن يصح ما يروي أن ابليس لما قال له: كيف عرفت أنه نداء الله تعالى؟ قال لأني سمعته بجميع أجزائي، فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء علم أن ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوي الله تعالى، وهذا إنما يصح على مذهبنا، حيث قلنا البنية ليست شرطًا [1].

وقد بينت سورة "طه" ما أجمل هنا فذكرت بعد إعلام الله لموسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - بأن الذي يناديه هو ربه وأمره أن يخلع نعليه في هذه البقعة المباركة وأنه اختاره لرسالته وبين له أصول هذه الرسالة من التوحيد والعبادة والبعث والجزاء، ثم سأله عما بيمينه فأجاب.

بين يدي فرعون وملئه فأراه الله هذه المعجزة في هذا المقام وقبل ذهابه إلى فرعون ليعتاد (عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) هذا الأمر العظيم إنه حين رآها كذلك ولي مدبرا ولم يعقب: أي ولم يلتفت لأن الطبع ينفر من ذلك فلما قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ أي إذا أدخلت

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٧٦/١٢، ٢٧٥"

يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق ولهذا قال من غير سوء أي من غير برص [١].

قوله تعالى: ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ ﴾.

يقول الإمام الزمخشري فيها: "قلت: فيه معنيان":

أحدهما: أن موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - لما قلب الله العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له إن اتقائك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حيه فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخري والمراد بالجناح: اليد، لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمني تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه.

والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حيه حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لأنه إذا ضاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران [٢].

ثم قال له ربه بعد أن أراه هاتين الآيتين: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَا فَٰسِقِينَ﴾ قرأ مخففًا ومشددًا فالمخفف مثني ذا والمشدد مثني ذان.

قوله تعالى: ﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ حجتان نيرتان على صدقه في النبوة وصحة ما دعاهم إليه من التوحيد [٣]

يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) ابن كثير "١٢/٣"

(٢) الكشاف "٤٠٨/٣"

(٣) مفتايح الغيب للرازي "٢٨٠/١٢"

وقيل: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ أي شمر واستعد لتحمل أعباء الرسالة قلت: فعلى هذا قيل ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ أي من المرسلين، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولا بهذا القول وقيل إنما صار رسولا بقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾.[1]

إنه فر من فرعون وملأه إلى أرض مدين وهو راجع إلى مصر بعد هذا الوقت يخشى لقاء فرعون كما أورد بن كثير عن مجاهد أنه قال: كان موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - قد ملئ قلبه رعبا من فرعون، فكان إذا رآه قال:" اللهم إني أدرأ بك من نحره، وأعوذ بك من شره " فنزع الله ما كان في قلب موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - وجعله في قلب فرعون [2].

لقد أرسل الله عز وجل الرسل وأيدهم بالمعجزات إقامة للحجة على أقوامهم وها هو موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - يكلف برسالة ويمنح معها الآيات الباهرات قال سبحانه: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ فذانك أي العصا واليد والتذكير لمراعاة الخبر وهو قوله تعالى: ﴿بُرۡهَٰنَانِ﴾ وقيل الإشارة إلى انقلاب العصا حيه بعد إلقائها وخروج اليد بيضاء بعد ادخالها في الجيب فأمر التذكير ظاهر، والبرهان الحجة النيرة وهو فعلان لقولهم! أبره الرجل إذا جاء بالبرهان من بره الرجل إذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء برهاء وبرهرهة.

وقال بعضهم هو فعلان من البره بمعني القطع فيفسر بالحجة القاطعة، وقيل: هو فعلان لقولهم برهن ونقل عن الأكثر أن برهن مولد بنوه من لفظ البرهان [3]، وقرأ أب وعمرو وابن كثير ﴿فَذَٰنِكَ﴾ بتشديد النون وهي لغة فيه، فقيل: إنه عوض من الألف المحذوفة من ذا حال التثنية لألفها نون وأدغمت [4].

---

(١) تفسير القرطبي "٦٥٣،٦٥٤/٧"

(٢) تفسير بن كثير "١٢/٣"

(٣) روح المعاني للألوسي "٧٦/٢٠"

(٤) النشر في القرآت العشر (٥٤٥)

يقول الشيخ عبدالكريم الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد كان مع موسى غير هذين البرهانين، سبع آيات أخري وهي الجراد والقمل والضفادع والدم والجدب والطوفان ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وخص البرهانان هنا وهما العصا واليد خصا بالذكر لأنهما الآيتان اللتان يلقي بهما تكذيب فرعون له ولهذا كانت المعركة المتحدية بين موسى وفرعون في لقاء العصا بالسحرة الذين جمعهم فرعون لموسى أما الآيات الأخرى فقد كانت بلاء متحديا لفرعون وقومه جميعا ولعل هذا - والله أعلم - هو السر في اختلاف النظم هنا في قوله تعالى فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه وما جاء في سورة النمل في قوله تعالى في تسع آيات إلى فرعون وقومه فالملأ هم الحاشية والقوم هم المجتمع كله [1]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: كافرين [2]

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أنه تعالى لما قال فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوي قلبه ويزيل خوفه فقال: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾.[3]

يقول الإمام الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف؛ لذلك، أن يقتلون بمقابلتها، والمراد بهذا الخبر طلب الحفظ والتأييد لإبلاغ الرسالة على أكمل وجه لا الاستعفاء من الإرسال، وزعمت إليهود أنه - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - استغفر ربه- سبحانه- من ذلك وفي التوراة التي بأيديهم اليوم أنه قال يارب ابعث من أنت باعثه وأكد طلب التأييد بقوله: " وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا " أي عونا كما روي عن قتادة وإليه ذهب أبو عبيدة وقال: يقال ردأته على عدوه أعنته

(١) النشر في القرآت العشر (٥٤٥)

(٢) تفسير النسفي "٢٣٦/٣"

(٣) مفاتيح الغيب للرازي "٢٨١/١٢"

[١]، وقرأ ردا على التخفيف.

يقول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ بالرفع والجزم صفة وجواب نحو ﴿وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾ " سواء فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له:صدقت أو يقول للناس:صدق موسى وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة، فذلك جار مجري التصديق المفيد كما يصدق القول بالبرهان، ألا تري إلى قوله: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك،لا لقوله:صدقت، فان سحبان وباقلا يستويان فيه أو يصل جناح كلامه بالبيان، حتى يصدقه الذي يخاف تكذيبه، فأسند التصديق إلى هارون لأنه السبب فيه إسنادا مجازيا [٢]، لعلاقة السببية، أو أسند التصديق إليه حقيقة وهو ماعزاه الفخرالرازي للجمهور [٣].

وعلل موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - سؤاله بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ إذا لم يكن لي وزير ولا معين،لأنهم لا يكادون يفقهون مني فقال الله جل وعز له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ قال طرفة: "

بني لبيني لســتم بيد *** إلا يدا ليست لها عضد"

ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك وفي ضده فت الله في عضدك ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي حجة وبرهانا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي بالأذي ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي تمتنعان منهم بآياتنا [٤].

---

(١) روح المعاني للألوسي "٧٧/٢٠"

(٢) الكشاف للزمخشري "٤٠٩،٤١٠/٣"

(٣) مفاتيح الغيب "٢٨١/١٢"

(٤) تفسير القرطبي "٦٥٥/٧"

وقد بين الفخر الرازي هذه المنعة:

لأنهم إذا علموا أنه متي ألقاها صارت حية عظيمة وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الأمرين، فأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صلبوا وليس في القرآن ما يدل عليه وإن سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ فالمنصوص أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما وإيصال الضرر إلى غيرهما لا يقدح فيه(١).

وكانت المنعة لهما عليهما السلام دون الأتباع ليعلم صادق الإيمان من غيره كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ (٢)، فكان ما أصاب أتباعهما إختبارا لهم، ويجوز الوقف على قوله سبحانه: ﴿إِلَيۡكُمَا﴾ والإبتداء بما بعده أو الوقف على قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وإذا وقف القارئ على أحدهما لا يقف على الآخر وهو وقف التعانق.

القبس مما سبق:

١- بيان الوفاء بالعهود والعقود، فقد وفي موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - أتم الأجلين.

٢- ضرورة حفظ الإنسان لأهله من الأخطار، حيث قال موسى لأهله ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ ومراعاة تخوفهم حيث وعدهم أن يأتيهم بخبر والرقة عليهم حيث وعدهم بما يأتيهم من جذوة يستدفئون بها.

٣- على العقل أن يقف عند منتهاه فلا يسأل كيف كلم الله موسى إلى غير ذلك مما يجب الإيمان به كما ورد.

-(١) مفاتيح الغيب"٢٨٣/١٢"

(٢) العنكبوت "١:٣"

٤- التوكل على الله لا ينافي أخذ الأسباب وتوقي الأخطاء وطلب المعاون من الناس كما طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون عليهما السلام.

البحث السادس:

معارضة فرعون وملأه لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن حالهم بعد ما جاءهم موسى بهذه الآيات الباهرات التي ألقي السحرة لجلالها ساجدين ولرب موسى وهارون مؤمنين كما ورد ذلك في غير هذه السورة من القرآن الكريم آمن السحرة وآمن بنو إسرائيل بينما استكبر فرعون وقومه وها هو قولهم كما أخبر به القرآن ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا

سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أي واضحات ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ أي سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله موصوف بالإفتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ما حدثنا بكونه فيهم [1]

قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا، وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم هذا سحر لم يسمعوا بمثلها [2].

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(عند ذلك قال موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - وقد عرف منهم العناد "ربي أعلم بمن جاء بالهدي من عنده ومن تكون له عاقبة الدار فإن من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم إعتراضا عليها وإنما لما وجد منه العناد صح أن يقول ربي أعلم بمن معه الهدي والحجة منا جميعا ومن هو على الباطل ويضم إليه طريقة الوعيد والتخويف وهو قوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ والمراد بالدار بالدار الدنيا وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشري عند الموت [3].

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عاقبة الدار أي دار الجزاء " إنه " الهاء ضمير الأمر والشأن: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ

(١) تفسير النسفي "٢٣٦/٢٠"

(٢) الكشاف للزمخشري "٤١١/٣"

(٣) مفاتيح الغيب للرازي"٢٨٣/١٢، ٢٨٤"

ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عاقبة الدار أي من النصرة والظفر والتأييد: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي المشركون بالله عز وجل [2]، ولم يخضع فرعون لهذه الحجة بل قال غلظا وركب شططا فنصب نفسه إلها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعلم أن فرعون كانت عادته متي ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر منها شبهتين:

الأولي: قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وهذا في الحقيقة يشتمل على كلامين:

أحدهما: نفي إله غيره. **والثاني**: إثبات إلهية نفسه [3].

قال الإمام القرطبي – رَحِمَهُ ٱللَّهُ-

قال ابن عباس: كان بينها وبين قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أربعون سنة وكذب عدو الله، بل علم أن له ثم ربا هو خالقه وخالق كل شئ [4].

ولعل قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ هي التي قالها بعد أن جمع الناس وقد رأوا معجزات موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ثم قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ .

(١) القرطبي "٦٥٦/٧"

(٢) ابن كثير "١٤/٣"

(٣) الرازي "٢٨٥/١٢"

(٤) القرطبي "٦٥٦/٧"

قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن فرعون قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده معناه: "مالكم من إله غيري" كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه بما ليس فيهن وذلك لأن العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه فإذا كان الشيء معدوما لم يتعلق به موجود فمن ثمة كان انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده ويجوز أن يكون على ظاهره وأن إله غيره غير معلوم عنده [1].

قال الإمام بن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أمر وزيره "هامان" مدير رعيته أن يوقد له على الطين يعني يتخذ له أجرا لبناء الصرح وهو القصر الرفيع العالي كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ وذلك لأن فرعون بني هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوي إله غير فرعون ولهذا قال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي في قوله: إن ثم ربا غيري لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا فإنه قال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ و﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [2].

قال الإمام- القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى:-

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الظن هنا أي الشك فكفر على الشك لأنه قد رأي من البراهين ما لا يخيل على ذي فطرة.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي عن الإيمان بموسى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدوان أي لم تكن له حجه تدفع ما جاء به موسى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ

(١) الكشاف للزمخشري "٤١٣/٣"

(٢) ابن كثير "١٤/٣"

إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي توهموا أنه لا معاد ولا بعث [١].

وذكر الإمام الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أن فرعون إنما شك في إرسال موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - فأراد هذا الصرح أن يبين لهم كذبه في ادعاء الرسالة أو المراد أطلع على حكم إله موسى والنظر في الكواكب وأراد اللعين بهذا الكلام التهكم [٢].

يقول تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المراد بالأخذ هنا الإحاطة والتمكن من الإمساك بفرعون وجنوده، إذ وقعوا تحت قضاء الله النافذ فيهم وهو الموت غرقا وكأن يد الله سبحانه وتعالى هي التي أخذتهم من دورهم فألقت بهم في إلَيم وكأنهم ليسوا هم الذين سعوا بأقدامهم إلى حتفهم [٣].

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر وقيل جعل الله الملأ من قومه رؤساء السفلة منهم فهم يدعون إلى جهنم وقيل أئمة يأتم بهم ذوو الكبر ويتعظ بهم أهل البصائر ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ أي عمل أهل النار ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ﴾ أي أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم، وقيل أي ألزمناهم اللعن أي البعد عن الخير ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المهلكين الممقوتين. قاله ابن كيسان وأبو عبيدة وقال ابن عباس، المشوهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون وقيل من المبعدين. يقال قبحه الله أي نحاه من كل خير وقبحه إذ جعله قبيحا [٤].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير "٦٥٧/٧"

(٢) روح المعاني للألوسي "٨١/٢٠"

(٣) التفسير القرآني للقرآن "٣٤٩/٢٠"

(٤) تفسير القرطبي "٦٥٧،٦٥٨/٧"

والكتاب هو التوراة، ووصفه به ومن حيث إن المتمسك به يفوز بطلبه من الثواب، ووصفه بأنه رحمة لأنه من نعم الله تعالى على من تعبد به.

وروي أبو سعيد الخدري عن النبي (ﷺ) أنه قال: "ما أهلك الله تعالى قرنا من القرون بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل التوراة، غير أهل القرية التي مسخها قردة "[1].

يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ " قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه"[2].

القبس مما سبق:

١- مع وضوح الحجة قد يقع الإنكار فعلى الدعاة الثبات.

٢- عقاب الله يقع للظالمين في الدارين كما وقع لآل فرعون.

٣- لطف الله بالعباد بالتذكرة بالرسل والكتب.

(١) مفاتيح الغيب للرازي "...٢٨٩/"

(٢) ابن كثير "١٥/٣"

البحث السابع:
دلالة إخبار القرآن بما جري في الطور

قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ثم توجه الخطاب إلى رسول (ﷺ) حيث قال له ربه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ﴿ ٱلْغَرْبِيِّ ﴾ أي المكان الواقع في شق الغرب، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - من الطور وكتب الله له في الألواح والأمر المقضي إلى موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - الوحي الذي أوحي إليه.

والخطاب لرسول الله -ﷺ - يقول: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ حاضرا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ولا كنت ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه، وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات، حيث تقف في وجهة المشاهدة على ما جري من أمر موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - في ميقاته وكتبة التوراة له في الألواح وغير ذلك [1]

(١) الكشاف للزمخشري "٤١٧/٣"

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما قال ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ ثبت أنه لم يكن شاهدا لأن الشاهد لابد وأن يكون حاضرا، فما الفائدة في إعادة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؟ الجواب: قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت فما شاهدت الوقائع، فإنه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يري [1].

وأورد الإمام القرطبي قولًا آخر فيما قضاه الله إلى موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وهو: أنه قضي إلى موسى أمر محمد -ﷺ - وذكره بخير ذكر أو قضي أن أمته خير الأمم [2].

والراجح مما سبق ذكره من أنه التكليف بالرسالة أما ذكر محمد -ﷺ - وأمته فقد وردت به التوراة واشتملت عليه الألواح، ولم يقتصر عليه الأمر الذي قضاه الله إلى نبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾.

عن وجه هذا الاستدراك يقول الإمام الرازي:

معني الآية ولكنا أنشأنا بعد عهد موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذي أنت فيه، فاندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى، فالحاصل كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وماجري عليه، ولكنا أوحينا إلَيك فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب، فإذن هذا الإستدراك شبيه الإستدراكين بعده، واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال إن في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله، دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [3].

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٩١/١٢"

(٢) تفسير القرطبي "٦٥٩/٧"

(٣) مفاتيح الغيب للرازي "٢٨٢/١٢، ٢٩١"

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن الله تعالى قال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ يعني ما كنت يامحمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة على شاطئ الوادي: ﴿مَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحي إِلَيك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي ما كنت مقيما في أهل مدين نتلوا عليهم آياتنا، حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه: ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴾ أي ولكن نحن أوحينا إِلَيك ذلك ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتي في الميقات مع السبعين وروي عمرو بن دينار يرفعه قال:

"نودي يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني " فذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾.

وقال أبو هريرة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - وفي رواية عن ابن عباس إن الله قال " يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ورحمتكم قبل أن تسترحموني " ومعني الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا ﴿ وَلَٰكِن﴾ فعلنا ذلك ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ منا بكم (٢).

﴿ رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكرو غيره لرحمة كائنة منا

(١) ابن كثير "١٦/٣"

(٢) تفسير القرطبي "٦٦٠/٧"

لك وللناس. "

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ متعلق بالفعل المعلل بالرحمة وهو يستدعي أن يكون الإرسال بالقرآن أو معناه كتعليم القرآن دون تعليم ما ذكر من القصة إذ لا يظهر حسن تعليله بالإنذار، وجوز أن يتعلق بالمستدركات الثلاث على التنازع [١].

يقول الشيخ عبدالكريم الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هو تأكيد لرسالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأنه إنما تلقي هذا القرآن الذي بين يديه وحيا من ربه فهو صلوات الله وسلامه عليه لم يكن حاضرا مناداة الحق سبحانه وتعالى لموسى وهو بجانب الطور حتى ينقل إلى الناس هذا الذي بين يديه هو رحمة من الله سبحانه وتعالى إلى هؤلاء المشركين الذين بعثه الله نبيا فيهم، إذ لم يأتهم رسول من قبله، كما أتي غيرهم من الأمم فليذكروا هذه النعمة وليأخذوا حظهم منها، وليكن لهم فيها موعظة وذكري (٢).

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

لولا الأولي امتناعية وجوابها محذوف والثانية تخصيصية وإحدى الفاءين للعطف، والأخرى جواب لولا، لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد، والمعني: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي: هلا أرسلت إلَينا رسولا، محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعني أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها، كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [٣]، [٤].

---

(١) روح المعاني للألوسي "٨٧/٢٠"

(٢) التفسير القرآني للقرآن "٣٥٣،٣٥٤/٢٠"

(٣) النساء آية "١٦٥"

(٤) الكشاف للزمخشري "٤١٨/٣"

يقول الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ يريد قريشا وقيل إليهود ﴿ مُّصِيبَةٌ﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي. وخص الأيدي بالذكر لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها (١).

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن القوم أنه لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول، فلما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد -ﷺ - قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والإلحاد: ﴿ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ﴾ الآية.

يعنون الآيات التسع التي سبق ذكرها مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام، وإنازل المن والسلوي إلى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة التي أجراها الله تعالى على يدي موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ، حجة وبرهانا له على فرعون وملئه، ومع هذا كله لم ينجح في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ ولهذا قال ها هنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ ﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة (٢).

وها هم إخوانهم في الضلال من أهل مكة يكفرون بمحمد -ﷺ - ويرمونه بما رمي به آل فرعون موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام وقد بين القرآن هذا المسلك العجيب للمكذبين الضالين قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ

(١) القرطبي "٦٦٠،٦٦١/٧"

(٢) تفسير ابن كثير "١٦،١٧/٣"

أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ (١).

يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ .

هو مزج المشركين بفرعون مزجا كاملا وجمعهم وإياه في كيان واحد بحيث يكون لهم موقف واحد، ومنطق واحد وإن بعد المدي بينهم وبينه زمانا، ومكانا ولسانا ومجتمعا.. فهذه الفواصل كلها فواصل مادية لا تقوم حجازا بين إئتلاف الأهواء والتقاء المشارب.. إن هواهم جميعا واحد، وإن مشربهم على سواء. (٢)

لذلك جمعهم القرآن في خطاب واحد ثم توجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ﴾ أي قل يامحمد إذ كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما أتبعه، ليكون ذلك عذرا لكم في الكفر ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في أنهما سحران أو فأتوا بكتاب هو أهدي من كتاب موسى ومحمد عليهما السلام (٣).

يقول صاحب الكشاف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته، لأن إمتناع الإتيان بكتاب أهدي من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال للشك فيه ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهكم بهم (٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾ يامحمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان وأنه لا حجة لهم ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا أحد أضل منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي

(١) سورة الذاريات "٥٢"
(٢) التفسير القرآني للقرآن "٣٥٦/٢٠"
(٣) تفسير القرطبي "٦٦٢/٧"
(٤) الكشاف للزمخشري "٤٢٠/٣"

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١).

القبس مما سبق:

١- هذه الأيات وما فيها من أخبار برهان صدق الرسالة المحمدية وربانية القرآن، ولا يضيره عناد المنكرين، فقد جحدوا رسالة موسى مع كثرة الآيات البينات.

البحث الثامن:
مدح مؤمني أهل الكتاب

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾.

توصيل القول هو إتيان بيان بعد بيان وهو من وصل البعض بالبعض، وهذا القول الموصل يحتمل أن يكون المراد منه أنا نزلنا القرآن منجما مفرقا يصل بعضه ببعض ليكون

(١) تفسير القرطبي "٦٦٢/٧"

ذلك أقرب إلى التذكير والتنبيه، فإنهم كل يوم يطلعون على حكمة أخري وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب إلى التذكر، وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابا عن قولهم هلا أوتي محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتي موسى كتابه كذلك.

ويحتمل أن يكون المراد: بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزا مرة بعد أخري لعلهم يتذكرون [1]

وذكر الإمام القرطبي في معني ﴿وَصَّلْنَا﴾ :

قال أبو عبيدة والأخفش: معني وصلنا أتممنا كصلتك الشئ وقال ابن عيينة والسدي: بينا وقال ابن عباس وقال مجاهد: فصلنا وكذلك كان يقرؤها وقال ابن زيد: وصلنا لهم خبر الدنيا بخبرالآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا. وقال أهل المعاني: وإلَينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضه بعضا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض [2].

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم إنه تعالى لما أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن أسلموا بمحمد -ﷺ - فمن لا يعرف الكتب أولي بذلك وإختلفوا في المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وذكروا فيه وجوهًا:

أحدها: قال قتادة إنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقه يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدا آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام.

ثانيها: قال مقاتل نزلت في أربعين رجلا من أهل الإنجيل وهم أصحاب السفينة جاءوا من الحبشة مع جعفر.

ثالثها: قال رفاعة بن قرظة نزلت في عشرة أنا أحدهم. وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٩٨/١٢"

(٢) تفسير القرطبي "٦٦٢،٦٦٣/٧"

بخصوص السبب.

فكل من حصل في حقه تلك الصفة كان داخلا في الآية [١]

يقول الإمام النسفي:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ من قبل القرآن وخبر الذين ﴿هُم بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ﴾ القرآن ﴿عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ﴾ من قبل نزول القرءان ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ كائنين على دين الإسلام مؤمنين بمحمد - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - وقوله إنه تعليل للإيمان به لأن كونه حقا من الله بأن يؤمن به، وقوله إنا بيان لقوله آمنا لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده فأخبروا بأن إيمانهم به متقادم [٢].

قال الإمام الرازي:

ثم أنه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ "وذكروا فيه وجوها:

أحدها: أنهم يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بمحمد -ﷺ - قبل بعثته وبعد بعثته وهذا هو الأقرب.

ثانيها: يؤتون الأجر مرتين مرة بإيمانهم بالأنبياء الذين كانوا قبل محمد -ﷺ - ومرة أخري بإيمانهم بمحمد -ﷺ - .

ثالثها: قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا بمحمد -ﷺ - شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم أجران أجر على الصفح وأجر على الإيمان [٣].

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٢٩٨،٢٩٩/١٢"

(٢) النسفي "٢٤٠/٣"

(٣) مفاتيح الغيب "٢٩٩/١٢"

ثم ذكر تعالى من صفاتهم:

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله، ولكن يعفون ويصفحون ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في الزكاة المفروضة، وصدقات النفل والقربات وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها [1]، أو أن المراد لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾.

سبب نزول الآية: أخرج الإمام مسلم [3] وغيره عن أبي هريرة –رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ- قال: قال رسول الله -ﷺ- لعمه: قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة، قال لولا أن تعيرني نساء قريش يقلن: إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك، فأنزل الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾.

وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال: سألت ابن عمرو عن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ أفي أبي جهل وأبي طالب؟ قال نعم[4]

يقول الإمام القرطبي:

جل المفسرين أن الآية نزلت في شأن أبي طالب، وقال أبو روق قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

(١) ابن كثير (١٨/٣)

(٢) القرطبي (٦٦٦/٧)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان.باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله (٤/١) وذكره ابن كثير في تفسيره (٤٠٨/٣)

(٤) أسباب النزول للسيوطي للإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله ت ياسر صلاح عزب "٢٤٦"

يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ إشارة إلى العباس وقاله قتادة ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ قال مجاهد لمن قدر له أن يهتدي. وقيل: معني من أحببت أي من أحببت أن يهتدي، وقال جبير بن مطعم: لم يسمع أحد الوحي يلقي على النبي -ﷺ- إلا أبا بكر الصديق فإنه سمع جبريل وهو يقول يامحمد إقرأ ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.(١)

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

سبب نزول الآية: أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس: أن أناسًا من قريش قالوا للنبي -ﷺ- إن نتبعك تخطفنا الناس فنزلت، وأخرج النسائي عن ابن عباس: أن الحارث بن عامر بن نوفل هو الذي قال ذلك (٢).

قوله تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ قرأ أهل المدينة " تجبي " بالتاء وأهل الكوفة وأبوعمرو بإلياء وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس تأنيث حقيقي فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعني ومعني الكلية الكثرة كقوله تعالى (٣).﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعقلون، أي هم غافلون عن الإستدلال وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضي حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم (٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي "٦٦٦/٧"

(٢) أسباب النزول للسيوطي "٢٤٦" وهو "ضعيف" فيه الحسين بن داود المصيصي الذي كان يلقن شيخه الحجاج، ولكنه توبه من الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني كما عند النسائي في الكبري (١١٣٨٥) وهو ضعيف لعلة الانقطاع.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي "٣٠٢/١٢"

(٤) تفسير القرطبي "٦٦٧/٧"

قال الإمام الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي وكثيرًا من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العيش والدعة حتى بطروا واغتروا ولم يقوموا بحق النعمة فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم: ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ التي تمرون عليها في أسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا حال كونهما ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد تدميرهم: ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ أي إلا زمنا قليلا إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم أو إلا سكنا قليلا وقلته باعتبار قلة الساكنين فكأنه قيل: لم يسكنها من بعدهم إلا قليل من الناس(١).

القبس مما سبق:

١- دفع السيئة بالحسنة والإعراض عن الجاهلين

٢- الهداية هدايتان إحداهما هداية دلالة في توجيه المصلحين، وهداية إعانة بتوفيق رب العالمين.

البحث التاسع:
إهلاك الظالمين ومناظرة المشركين يوم القيامة

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ

(١) روح المعاني للألوسي "٩٨/٢٠"

حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧ ﴾.

لما أشارت الآية السابقة إلى إهلاك كثير من القري بين سبحانه ما سبق هلاكهم من إنذار لهم وإعذاره إياهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾

يقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ أي القري الكافر أهلها حتى يبعث في أمها قرئ بضم الهمزة وكسرها [١] لإتباع الجر يعني مكة و ﴿ رَسُولٗا﴾ يعني محمد -ﷺ – وقيل ﴿فِيٓ أُمِّهَا﴾ يعني في أعظمها ﴿ رَسُولٗا﴾ ينذرهم وقال الحسن: في أوائلها قلت: ومكة أعظم القري لحرمتها وأولها، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها،لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهي أم ما حولها [٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ .

قال صاحب الكشاف:

وهذا بين لعدله وتقدسه عن الظلم، حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل

(١) النشر في القرآت العشر(٥٤٥)

(٢) تفسير القرطبي(٦٦٧/٧)

علمه بأحوالهم حجة عليهم، ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين.

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فنص في قوله ﴿ بِظُلْمٍ﴾ إنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم، دل على ذلك بحرم النفي مع لامه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ (١).

يقول تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إعلم أن هذا الجواب الثالث عن تلك الشبهة، لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقي، أما أنه خير فلوجهين:

أحدهما: أم المنافع هناك أعظم.

ثانيهما: أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر. وأما أنها أبقي فلأنها دائمة غير متقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتي قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لإستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال تعالى: ﴿﴾ " أفلا تعقلون " يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل(٢).

يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) الكشاف للزمخشري "٣/٤٢٤"

(٢) مفاتيح الغيب للرازي " ١٢/٣٠٦"

ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ .

سبب نزول الآية: أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ﴾ نزلت في النبي -ﷺ - وفي أبي جهل بن هشام، وأخرج من وجه آخر عنه: أنها نزلت في حمزة وأبي جهل(١).

قال صاحب الكشاف:

هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها، والوعد الحسن: الثواب، لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والاستحقاق، وأي شيء أحسن منها، ولذلك سمي الله الجنة بالحسني، و ﴿لَقِيهِ ﴾ كقوله تعالى ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ وعكسه ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ﴿ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ من الذين أحضروا النار، ونحوه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (٢).

ثم بين سبحانه سؤالًا لهؤلاء المحضرين عن ثلاثة أشياء:

السؤال الأول: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ " شركائي " مبني على زعمهم، وفيه تهكم فإن قلت زعم يطلب مفعولين كقوله ولم أزعمك من ذاك معزلا، فأين هما؟

قلت: محذوفان، تقديره الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت، ولا يصح الاقتصار على أحدهما (٣).

ثم ذكر سبحانه وتعالى جوابهم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء، قاله الكلبي وقال قتادة: هم الشياطين. ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي دعوناهم إلى الغي فقيل

(١) لباب النقول في أسباب النزول (٢٤٧)

(٢) الكشاف (٤٢٥/٣)

(٣) الكشاف "٤٢٦/٣"

لهم: أغويتموهم؟ قالوا: ﴿ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ ﴾ يعنون أضللناهم كما كنا ضالين. ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ﴾ أي تبرأ بعضنا من بعض، والشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل منهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

ففي الآية بيان لما سيكون بين التابعين والمتبوعين من أهل النار حين توجه النداء إليهم، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فإتبعوهم، ثم تبرأوا من عبادتهم كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ .(٢)

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ .(٣)

وقال الخليل - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - لقومه: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ وقال الله تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ "العذاب" أي وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، وقوله ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ أي فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٤).

<u>الأمر الثالث:</u> من الأمور التي يسأل الله الكفار عنها قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الأنباء " أي صارت الأنباء كالعمي عليهم جميعا لا

(١) القرطبي "٦٧٠/٧"
(٢) مريم "٨٢"
(٣) الأحقاف "٦"
(٤) ابن كثير "٢١/٣"

تهتدي إليهم ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس في المشكلات لأنهم يتساوون جميعا في عمي الأنباء عليهم والعجز عن الجواب [١].

يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من المشركين من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن﴾ يفلح عند الله و"عسى" من الكرام تحقيق. ويجوز أن يراد: ترجي التائب وطمعه، كأنه قال: فليطمع أن يفلح [٢].

القبس مما سبق:

١- العاقل يختار الخير الباقي على المتاع الزائل

٢- لزوم طريق الهداية وعدم اتباع اهل الغواية

البحث العاشر:
برهان الخلق والإرادة الربانية

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٣٠٩/١٢"

(٢) الكشاف للزمخشري "٤٢٧/٣"

وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٧٤ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٧٥ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

يقول الفخر الرازي:

إعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة أخري ويقولون: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ﴾ يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي" [1].

فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿ ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ ﴾ والمراد أنه الملك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من يشاء بما شاء لا إعتراض عليه البتة وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أنه كل ما فعله كان حكمة وصوابا فليس لأحد أن يعترض عليه [2].

قال الإمام القرطبي:

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم وإختاروهم للشفاعة، أي الإختيار إلى الله تعالى في الشفعاء لا إلى المشركين [3].

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ ﴾ والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر والخيرة أيضا إسم للمختار يقال محمد خيرة الله في خلقه وإذا عرفت هذا فنقول في الآية وجهان هما:

الأول: وهو الأحسن أن يكون تمام الوقف على قوله تعالى ﴿ وَيَخۡتَارُۗ ﴾ ويكون ما نافيا، والمعني: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ ﴾ ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن

(١) الزخرف "٣١"

(٢) مفاتيح الغيب "٣١٠/١٢"

(٣) القرطبي "٦٧١/٧"

يفعل.

الثاني: أن يكون ما بمعني الذي فيكون الوقف عند قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾ ثم نقول ﴿ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ ﴾ (١).

يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئا (٢).

يقول الشيخ عبدالكريم الخطيب:

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ ﴾ أي أنه سبحانه يخلق ما يشاء من مخلوقات، ويختار لكل مخلوق طريقه الذي يأخذه إلى الهدي أو الضلال، وإلَى الجنة أو النار.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ ﴾ هو نفي لأن يكون لأحد مع إرادة الله إرادة ومع اختياره اختياري (٣).

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

يقول صاحب الكشاف:

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله وحسده ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من مطاعنهم فيه وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوة ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ ﴾ وهو المستأثر بالإلهية المختص بها، و ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ تقرير لذلك، كقولك: الكعبة القبلة لا قبلة إلا هي، فإن قلت: الحمد لله الذي صدقنا وعده وقيل الحمد لله الذي صدقنا وعده وقيل الحمد لله رب العالمين والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة وفي الحديث: يلهمون التسبيح والتقديس "وله الحكم" القضاء

(١) مفاتيح الغيب للرازي " ٣١١/١٢"

(٢) ابن كثير "٢٢/٣"

(٣) التفسير القرآني للقرآن " ٣٧٦/٢٠"

بين عباده [١]، وأنه المنفرد بالوحدانية وأن جميع المحامد إنما تجب له، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير [٢].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾,

يقول الإمام الرازي:

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الإجمال بقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه [٣].

يقول الإمام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أرأيتم وقرئ أريتم بحذف الهمزة، وليس بحذف قياسي ومعناه أخبروني من يقدر على هذا؟ والسرمد: الدائم المتصل، من السرد وهو المتابعة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد، والميم مزيدة ووزنه فعمل، ونظيره دلامص، من الدلاص فإن قلت هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل: ﴿ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۚ﴾ قلت ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثمة قرن بالضياء ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره وأنت من السكون ونحوه ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم [٤].

يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ .

---

(١) الكشاف "٤٢٨/٣"

(٢) القرطبي "٦٧٤/٧"

(٣) مفاتيح الغيب للرازي

(٤) الكشاف للزمخشري " ٤٢٨،٤٢٩/٣"

يقول الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتين يتعاقبان على الزمان لأن المرء في الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلابد منهما والحالة هذه.

فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات، فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك إلا الله تعالى [١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

يقول الإمام القرطبي:

أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالَين، ينادون مرة فيقال لهم: ﴿﴾ أين شركائي الذين كنتم تزعمون " فيدعون الأصنام فلا يستجيبون فتظهر حيرتهم ثم ينادون مرة أخري فيسكتون. وهو توبيخ وزيادة في الخزي. والمناداة هنا ليست من الله لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [٢]، لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكتهم ويقيم الحجة عليهم في مقام الحساب، وقيل يحتمل أن يكون من الله وقوله: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ حين يقال لهم: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. [٣]

وقال ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم [٤].

يقول الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

---

(١) مفاتيح الغيب "٣١٣/١٢"

(٢) البقرة الآية "١٧٤"

(٣) المؤمنون "١٠٨"

(٤) القرطبي "٦٧٥/٧"

يقول الإمام ابن كثير:

قال مجاهد: يعني رسولا، ﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي لا إله غيره فلم ينطقوا ولا يحيروا جوابا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم [1].

القبس مما سبق:

١- المؤمن يستخير ربه في أموره ويسأله تدبير شؤونه

٢- إلتزام ما هيأه الله للإنسان في الليل والنهار لسلامة الأبدان

البحث الحادي عشر:
قصة قارون

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ

(١) ابن كثير "٢٣/٣"

يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

قارون اسم أعجمي مثل هارون، ولم ينصرف للعجمة والتعريف ولو كان فاعولا من قرن لا تصرف وقيل: معني كونه من قومه أنه آمن به. وقيل: كان اسرائليا ابن عم موسى، هو قارون بن يصهر ابن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وموسى ابن عمران بن قاهث، وقيل كان موسى ابن أخيه، وكان يسمي المنور لحسن صورته، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، ولكنه نافق كما نافق السامري [١].

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي طغي بماله أو ظلمهم أو تكبر عليهم واستخف بفقرائهم وطلب الفضل عليهم (٢).

وقيل حسدهم وطلب زوال نعمهم، وذلك ما ذكر منه في حق موسى وهارون عليهما السلام، والفاء فصيحة أي ضل فبغي، وجوز أن تكون على ظاهرها لأن القرابة كثيرا ما تدعوا إلى البغي [٣].

"﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ قال عطاء: "أصاب كثيرا من كنوز يوسف - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - ، وقال الوليد بن مروان إنه كان يعمل الكيمياء"[٤].

---

(١) الكشاف "٣/٤٣٠، ٤٢٩"

(٢) مفاتيح الغيب للرازي "١٢/٣١٦، ٣١٥" باختصار

(٣) روح المعاني "٢٠/١١٠"

(٤) القرطبي "٧/٦٧٨"

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أي الأموال، ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ أي: ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها" قال الأعمش: كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود، كل مفتاح على خزانة على حدته فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا، وقيل غير ذلك والله أعلم [١].

يقول الإمام الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة فهو مجاز بجعل المدخر كالمدفون ان كان الكنز مخصوصا به، وحكي في البحر أنه سميت أمواله كنوز لأنها لم تؤد منها الزكاة وقد أمر موسى - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - بأدائها فأبي وهو من أسباب عداوته اياه، وقيل: الكنوز هنا الأموال المدفونة [٢].

يقول الإمام النسفي:

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ ما بمعني الذي في موضع بآياتنا وإن واسمها وخبرها صلة الذي ولهذا كسرت إن والمفاتيح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به أو مفتح بالفتح وهو الخزانة والأصوب أنها المقاليد [٣].

﴿تَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعني لتنئ العصبة أي تميلهم بثقلها، فلما انفتحت التاء دخلت الباء كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويذهب البؤس فصار ﴿تَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ فجعل العصبة تنؤ أي تنهض متثاقلة كقولك قم بنا أي إجعلنا نقوم يقال: ناء ينوء إذا نهض بثقل [٤].

---

(١) ابن كثير "٢٣/٣"

(٢) روح المعاني للألوسي "١١٠/٢٠"

(٣) تفسير النسفي "٢٤٥/٢٠"

(٤) تفسير القرطبي "٦٧٨/٧"

والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها، فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في إخوة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم [١].

يقول الإمام الزمخشري:

قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ لَا تَفۡرَحۡۖ ﴾ " لا تفرح "كقوله: ﴿ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ .

وقول القائل: "ولست بمفراح إذا الدهر سرني، وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن، وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب، لم تحدثه نفسه بالفرح.

وما أحسن ما قال القائل:

أشد الغم عندي في سرور... تيقن عنه صاحبه انتقالا [٢].

قال الإمام القرطبي:

﴿ لَا تَفۡرَحۡۖ ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر "إن الله لا يحب الفرحين" أي البطرين، قاله مجاهد والسدي.

وقال مجاهد أيضا: معني: ﴿ لَا تَفۡرَحۡۖ ﴾ لا تبغ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ أي الباغين [٣].

قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ ﴾ والظاهر أنه كان مقرا بالآخرة، والمراد أن يصرف المال إلى ما يؤد به إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع [٤].

---

(١) مفاتيح الغيب "٣١٧/١٢"

(٢) الكشاف "٤٣٠/٣"

(٣) القرطبي "٦٨٠/٧"

(٤) مفاتيح الغيب "٣١٨/١٢"

قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة، فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي (١).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ وفيه وجوه:

أحدها: لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك.

ثانيها: لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام أنه لا يأس بالتمتع بالوجوه المباحة.

ثالثها: المراد منه الإنفاق في طاعة الله فإن ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب قال - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ - " فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار [٢].

﴿ وَأَحۡسِن﴾ إلى عباد الله عز وجل ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ أي مثل إحسانه تعالى إلَيك فما أنعم عليك، والتشبيه في مطلق الأحسان أو لأجل إحسانه سبحانه إلَيك على أن الكاف للتعليل.

وقيل: المعني وأحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله تعالى عليك بالإنعام والكاف عليه أيضا تحتمل التشبيه والتعليل [٣].

يقول الإمام الرازي:

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل

(١) تفسير القرطبي "٦٨٠/٧"

(٢) مفاتيح الغيب للرازي "٣١٨/١٢"

(٣) روح المعاني "١١٣/٢٠"

إن هذا القائل هو موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وقال آخرون: بل مؤمنوا قومه وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد، لكنه أبي أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال إنما أوتيته على علم عندي [١]

يقول الإمام القرطبي:

﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ قال الإمام الألوسي: الكلام فيه كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾[٢].

يقول الإمام الألوسي:

والمراد أنه تعالى يبغضهم ويهينهم ويبعدهم عن حضرته سبحانه، وقال بعضهم: إن في نفي محبته تعالى إياهم تنبيها على أن عدم محبته تعالى كان في الزجر عما نهي عنه فما بالك بالبغض والعقاب وهو حسن [٣].

قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾.

يقول الإمام الزمخشري:

على علم أي على استحقاق واستحباب لما في من العلم الذي فضلت به الناس أو علم الكيمياء وكان يحول الرصاص والنحاس ذهبا أو علم التجارة أو علم عندي أي في ظني[٤].

وفيما ذكره الزمخشري وغيره من المفسرين: أنه كان يحول النحاس ذهبا وكان أعلم بالكيمياء ففيه نظر.

ثم إن القول بأن المراد بالعلم في الآية علم استخراج الكنوز والدفائن يستدعي ثبوت هذا العلم، وأهل علم الحرف وعلم الطلسمات يقولون به ولهم في ذلك كلام طويل والعقل

---

(١) مفاتيح الغيب "٣١٩/١٢"

(٢) القرطبي "٦٨١/٧"

(٣) روح المعاني "١١٢/٢٠"

(٤) الكشاف "٤٣١/٣"

يجوز ثبوته والله تعالى أعلم بثبوته في نفس الأمر (١).

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ .

أي بالعذاب ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي الأمم الخالِية الكافرة ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أي للمال، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم.

وقيل: القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التفزيع من الله تعالى لقارون، أي " أولم يعلم قارون أن الله قد أهلك من قبله من القرون " (٢).

قال تعالى: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ .

يقول الإمام الزمخشري:

ما وجه إتصال قوله ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بما قبله؟ قلت: لما ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوي منه وأغني، قال على سبيل التهديد له والله مطلع على ذنوب المجرمين، لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم. وهو قادر على أن يعاقبهم عليها، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣).

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال.

فإن قيل: كيف الجمع بينه وبين قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ؟

قلنا: يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه، وذكر أبو مسلم وجها آخر فقال: السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتقرير والتبكيت، وقد يكون للاستعتاب، وأليق الوجوه بهذه

---

(١) روح المعاني "١٢٠/٢٠"

(٢) القرطبي"٦٨٢/٧"

(٣) الكشاف "٤٣١/٣"

الآية الاستعتاب لقوله ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (١).

ثم قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ .

ذكر الإمام الزمخشري (٢) أقوالًا كثيرة في بيان الزينة التي خرج فيها قارون وأحسن الأقوال ما ذهب إليه **الفخر الرازي**:

فخرج على قومه في زينته فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن إلا هذا القدر [٣].

يقول تعالى مخبرًا عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا [٤].

الحظ: الجد، وهو البحت والدولة: وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت [٥].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

يقول الإمام الزمخشري:

الويل: أصله الدعاء بالهلاك، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضي[٦].

فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ

---

(١) مفاتيح الغيب " ٣٢٠/١٢"

(٢) الكشاف "٤٣٢/٣"

(٣) مفاتيح الغيب للرازي "٣٢١/١٢"

(٤) ابن كثير " ٢٤/٣"

(٥) الكشاف "٤٣٢/٣"

(٦) الكشاف" ٤٣٢/٣"

وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح "يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (١).

﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ **يقول الإمام الزمخشري:**

والراجح في: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ للكلمة التي تكلم بها العلماء، أو للثواب لأنه في معني المثوبة أو الجنة، أو للسيرة والطريقة، وهي الإيمان والعمل الصالح ﴿ ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير (٢).

يقول الإمام الرازي في قوله ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره والفاء تدل على ذلك، لأن الفاء تشعر بالعلية.

ثانيهما: ورد في الخسف وسببه روايات كثيرة تشير إلى إيذاء قارون لموسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - وأنه أتي ببغي لتقذف موسى بأنه فجر بها فبرأه الله على لسانها وأمر موسى الأرض فابتلعت قارون وقالت بنو إسرائيل إن موسى دعا على قارون ليأخذ ماله فخسف الله بدار قارون الأرض إلى غير ذلك من الروايات أتبعه الإمام الرازي بقوله:

والذي عندي في أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تقيد اليقين، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفي فيها بالظن، ثم إنها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولي طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب (٣).

---

(١) ابن كثير "٣/٢٤"

(٢) الكشاف "٣/٤٣٣".

(٣) مفاتيح الغيب "١٢/٣٢٣،٣٢٢،٣٢١" باختصار

وقال الإمام الألوسي بعد ذكرهذه الرو ايات:

والله أعلم بصحة ذلك، بل هو مشكل إن صح ما قاله الفلاسفة في مقدار قطر الأرض ولم يقل بأن لها حركة أصلا وأما الخسف فلا شك في إمكانه الذاتي والوقوعي وسببه العادي مبين في محله [١].

يقول الإمام النسفي:

﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله يقال نصره من عدوه فانتصر أي منعه منه فامتنع [٢] ثم بين تعالى ما كان من أمر هؤلاء الذين تمنوا مثل ما لقارون.

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ إلى قوله: ﴿ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .

يقول الإمام الزمخشري:

قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب عن طريق الاستعارة ﴿ مَكَانَهُۥ﴾ "مكانه" منزلته من الدنيا **"وي"** مفصولة عن **كأن** وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم: ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ وتندموا ثم قالوا ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

أي ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه قال: "وي كأن من بكي له نشب يحبب وظن يفتقر يعش عيش ضر "

وحكي الفراء أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك؟ فقال: وي كأنه وراء البيت وعند الكوفيين أن "ويك" بمعني ويلك، وأن المعني ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون، ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي كقوله: ويك عنتر أقدم، وأنه بمعني لأنه، واللام لبيان

(١) روح المعاني " ١٢٣/٢٠"

(٢) تفسير النسفي "٢٤٧/٣٠"

المقول لأجله هذا القول، أو لأنه لا يفلح الكافرون كان ذلك، وهو الخسف بقارون، ومن الناس من يقف على (وي) ويبتدئ (كأنه) ومنهم من يقف على " ويك " [١].

فلما قالوا: ﴿ يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا وي ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه، بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة [٢].

﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله عليهم السلام وبما وعدوا من ثواب الآخرة [٣].

يقول تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ .

﴿تِلۡكَ﴾ تعظيم لها وتفخيم لشأنها، يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فعلق الوعيد بالركون، وعن علي -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ- إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال ذهبت الأماني ههنا وعن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يرددها حتى قبض ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون، والفساد لقارون متعلقا بقوله: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إن فرعون علا في الأرض، ﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة، ولا يتدبر قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ كما تدبره علي والفضيل وعمر [٤].

---

(١) الكشاف "٣/٤٣٥،٤٣٤"

(٢) مفاتيح الغيب "١٢/٣٢٣"

(٣) روح المعاني "٢٠/١٢٥"

(٤) مفاتيح الغيب "١٢/٤٣٥"

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علوا في الأرض ولا فساد، بل هي للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم.

القبس مما سبق:

١- عدم الاغترار بالعلم والمال والحذر من الاستعلاء والفساد.

٢- التزود من الدنيا للآخرة والعاقبة للمتقين.

البحث الثاني عشر:
وعد الرسول بالرجوع إلى مكة ورجوع الخلق إلى الحق

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

فقال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ ﴾.

وفيه وجهان:

أحدهما: المعني من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير.

ثانيهما: حصل له شيء هو أفضل من تلك الحسنة، ومعناه أنهم يزدادون على

ثوابهم.[1].

أما قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾.

معناه: فلا يجزون، فوضع الذين عملوا السيئات موضع الضمير، لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكررا فضل تهجين بحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون، وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها، ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة وهو معني قوله "فله خير منها"[2].

وقال عكرمة: ليس شئ خيرا من لا إله إلا الله، وإنما المعني من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي بالشرك ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي يعاقب بما يليق بعمله [3].

قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

سبب نزول الآية:

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: لما خرج النبي -ﷺ - من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾. (٤).

ختم السورة ببشارة نبيه محمد -ﷺ - برده إلى مكة قاهرا لأعدائه. وقيل: هو بشارة له بالجنة. والأول أكثر. وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم. قال القتبي: معاد الرجل بلده لأنه ينصرف ثم يعود (٥).

---

(١) مفاتيح الغيب " ٣٢٥/١٢"

(٢) الكشاف "٤٣٩/٣"

(٣) تفسير القرطبي "٦٨٦،٦٨٧/٧"

(٤) لباب التقول "٢٤٧"

(٥) القرطبي "٦٨٧/٧"

قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ .

فإن قلت: كيف اتصل قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ ﴾ بما قبله؟ قلت: لما وعد رسوله الرد إلى معاد، قال: قل للمشركين ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في معاد ﴿ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يعنيهم وما يستحقون من العقاب في معادهم (١).

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ " وما كنت ترجوا أن يلقي إِلَيك الكتاب " تقرير لذلك أيضا أي سيردك إلى معاد كما أنزل إِلَيك القرآن العظيم الشأن وما كنت ترجوه (٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي ما علمت أننا نرسلك إلى الحق وننزل عليك القرآن ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ ﴾ قال الكسائي: هو إستثناء منقطع بمعني لكن. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي عونا لهم ومساعدا (٣).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ ﴾ وهو الميل إلى المشركين، قال الضحاك وذلك حين دعوه إلى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطرا من مالهم، أي لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (٤).

قوله تعالى: ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي عبادة ربك وحده لا شريك له "ولا تكونن من المشركين"(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ وهذا وإن كان واجبا على الكل إلا أنه تعالى

---

(١) الكشاف "٤٣٩/٣"

(٢) روح المعاني "١٣٠/٢٠"

(٣) القرطبي "٦٨٧،٦٨٨/٧"

(٤) مفاتيح الغيب "٣٢٧/١٢"

(٥) ابن كثير "٢٧/٣"

خاطبه به خصوصا لأجل التعظيم.

فإن قيل: الرسول كان معلوم منه أن لا يفعل شيئا من ذلك البته فما فائدة هذا النهي؟ قلنا: لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره، ويجوز أن يكون المعني لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلا في أمورك، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد(١).

" ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ قال مجاهد: معناه إلا هو وقال الصادق دينه، وقال أبوالعالِية وسفيان: أي إلا ما أريد به وجهه.

وقال محمد بن يزيد: حدثني الثوري قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى "كل شئ هالك إلا وجهه" فقال: إلا جاهه، كما نقول لفلان وجه في الناس أي جاه (٢)

يقول تعالى: ﴿ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ عز وجل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ عند البعث للجزاء بالحق والعدل لا إلى غيره تعالى ورجوع العباد إليه تعالى العقل وقيل: ضمير إليه للحكم (٣).

القبس مما سبق:

١- عظيم الجزاء من الله عز وجل وصدق الوعد لأهل الثبات على الحق والداعيين إليه والمخلصين له.

٢- الخلق بين قضاء الخق في الدنيا وفضل القضاء في الآخرة.

(١) مفاتيح الغيب للرازي "٣٢٧،٣٢٨/١٢"

(٢) القرطبي "٦٨٨/٧"

(٣) روح المعاني "١٣٢/٢٠"

خاتمــة

بعد معايشة أنوار هذه السورة المباركة نستخلص هذه القبسات لينتفع بها الأفراد والمجتمعات:

١- تربي هذه السورة النفس المؤمنة على الثقة بوعد الله كما هو الشأن مع أم موسى في مفتتح السورة ووعد الله لرسوله بالرجوع إلى مكة في ختامها وإن طال الزمن فقد ذكرت بعد إرادة الله المنة على المستضعفين وولادة موسى وإرضاعه الذي تتحقق على يديه هذه الإرادة الربانية.

٢- تعلم هذه السورة شباب اليوم المروءة والعفاف من خلال سقي سيدنا موسى غنم ابنتي شعيب وما كانتا فيه من العفاف والحياء.

٣- تبين اسس اختيار الزوج والزوجة من الاستقامة والأمانة.

٤- تنزع من النفوس الاستعلاء والفساد بالقوة والمال بما جاء فيها عن فرعون وقارون.

٥- تلفت الأنظار إلى آيتي الليل والنهار وأنهما من رحمة الله بعباده.

٦- فيها برهان على وحي الله لنبيه – -ﷺ -حيث أخبر بما فيها من قصص السابقين ولم يكن له من الشاهدين ولا تلقاه من معلمين ولا قرأه اذ كان من الأميين.

٧- على المرأ ان يجتهد في الأخذ بالأسباب في وقت الشدة ولا يقصر فقد يحقق النجاة كما بينت موقف أخت موسى والرجل الذي جاء من أقصي المدينة يسعي إلى غير ذلك مما حوته السورة المباركة.

والله الموفق والمستعان.

المراجـــع

١- أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي.

٢- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي.

٣- البحر المحيط لأبي حيان.

٤- التبيان في إعراب القرآن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن لأبي البقاء.

٥- التبيان في تفسير غريب القرآن لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري.

٦- التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور.

٧- التفسير القرآني للشيخ عبد الكريم الخطيب.

٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي.

٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل للإمام محمود ابن عمر الزمخشري.

١٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي.

١١- المصباح المنير للعلامة احمد بن محمد بن على الفيومي المقريء.

١٢- المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية.

١٣- المنتخب في تفسير القرآن.

١٤- النشر في القراءات العشر.

١٥- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروزابادي.

١٦- بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب لعلاء الدين على بن عثمان بن ابراهيم المارديني المعروف بابن الترجماني.

١٧- تفسير ابن كثير اختصار وتحقيق محمد على الصابوني.

١٨- تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري.

١٩- تفسير النسفي للإمام الجليل العلامة أبي البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفي.

٢٠- ثمار الجنان في أفنان من علوم القرآن للدكتور/ جودة محمد المهدي.

٢١- روح المعاني للألوسي تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

٢٢- زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي.

٢٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية.

٢٤- قصص الأنبياء لابن كثير.

٢٥- لباب النقول في أسباب النزول للإمام السيوطي.

٢٦- مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.

٢٧- مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب أبو محمد.

٢٨- معاني القرآن للنحاس تحقيق محمد على الصابوني جامعة أم القري- مكة المكرمة.

٢٩- مفاتيح الغيب للإمام الرازي.

٣٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

مُقَدِّمَة ٦٢٩
البحث الأول: المفتتح والبشارة ٦٣٤
البحث الثاني: تفصيل قصة ولادة موسى وتربيته ٦٤٢
البحث الثالث: سبب خروج موسى من مصر: ٦٥٠
البحث الرابع: هجرة موسى إلى مدين: ٦٥٧
البحث الخامس: عودة موسى - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - إلى مصر وآيات النبوة: ٦٦٦
البحث السادس: معارضة فرعون وملأه لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٦٧٦
البحث السابع: دلالة إخبار القرآن بما جري في الطور: ٦٨٢
البحث الثامن: مدح مؤمني أهل الكتاب ٦٨٨
البحث التاسع: إهلاك الظالمين ومناظرة المشركين يوم القيامة ٦٩٣
البحث العاشر: برهان الخلق والإرادة الربانية: ٦٩٨
البحث الحادي عشر: قصة قارون: ٧٠٣
البحث الثاني عشر: وعد الرسول بالرجوع إلى مكة ورجوع الخلق إلى الحق ٧١٤
خاتمة ٧١٨
المراجع: ٧١٩
فهرس المحتويات ٧٢١